

الحركة التجارية في مكة خلال القرنين

الخامس والسادس الهجريين (١١ - ١٢م)

المقدمة :

الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وبالقرآن هدى ودستوراً للحياة .

لا يخفى على كثير من الناس ما لمكة من أهمية كبيرة في التاريخ البشري على مر العصور ، وزادت هذه الأهمية في العصر الإسلامي وستظل حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد هيأ الله لمكة أسباب الخير والرزق الوفير وجاء هذا استجابة لدعوة نبيه الكريم إبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١). ولا يختلف اثنان من أن مكانة مكة الدينية لدى المسلمين قد هيأت لها روافد الاقتصاد الداعم، حيث يقدم الناس إليها ملبين النداء بالحج والعمرة ومن ثم الانتفاع بما حباها الله من النعم والخيرات .

الأستاذ :
فهد بن
عبدالله
الجدعي*

* بكالوريوس في
التاريخ من كلية
العلوم العربية
والاجتماعية ،
فرع جامعة
الإمام محمد بن
سعود الإسلامية
بالقصيم عام
١٤٢٢هـ .

- باحث دراسات
عليها - قسم
التاريخ والحضارة
بكلية العلوم
الاجتماعية
بالجامعة نفسها
تخصص في
التاريخ الإسلامي
(الجزيرة العربية).

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٣٧ .

الطبعة

السنة الحادية عشرة

جمادى الآخرة - رمضان ١٤٢٩هـ

يونيو - سبتمبر ٢٠٠٨م

العددان : الثاني والثالث والأربعون

ومن هذا المنطلق حاولت قدر المستطاع وبجهد متواضع أن أسهم ولو بجزء يسير في إبراز بعض الجوانب من تاريخ مكة الاقتصادي من خلال الكتابة عن الحركة التجارية فيها في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ففي هذه الفترة الزمنية شهد العالم الإسلامي بصفة عامة وبلاد الحجاز ومكة بصفة خاصة بعض التحولات السياسية التي أثرت بمجملها على الحركة التجارية ، واشتد الصراع بين أكبر قوتين في العالم الإسلامي ممثلتين بالدولتين العباسية والعبيدية وذلك لغرض فرض النفوذ والسيطرة على بلاد الحجاز ، واستخدمت كل منهما في هذا الصراع كل ما من شأنه ترجيح كفة إحداها على الأخرى .

وركزت الدولتان على استخدام الجانب الاقتصادي كأداة لكسب هذا الصراع حيث ألقت كل دولة بكامل ثقلها الاقتصادي وصرفت في هذا الكثير من مخزونها التجاري من أجل الظفر وبسط السلطة على منابر مكة .

وكان لهذا الصراع أثر سلبي على الأوضاع السياسية في مكة، حيث تخلخل الأمن وضعفت السلطة وكثر الشغب .

ومع هذا يجب أن لا ننكر ما كان لهذا الصراع وما استخدم فيه من وسائل وما صرف فيه من أموال من أثر إيجابي كبير على الحياة الاقتصادية في مكة ، فقد شكلت مكة بهذا وخلال القرنين الخامس والسادس تحديداً ثُقلاً اقتصادياً فازدهرت أسواقها وتنوعت بضائعها وسلعها وخاصة أيام المواسم، حيث أمها آلاف التجار من مختلف الأجناس .

وسوف نتناول في ثانيا هذا البحث الحركة التجارية في مكة بصفاتها مركزاً تجارياً مهماً في العالم الإسلامي عامة وإقليم الحجاز بصفة خاصة ، كما سوف نتحدث بشيء من التفصيل عن أهم ما كان قد توافر في أسواقها أو ما تنتجه أرضها من مختلف البضائع والسلع .

وسنحاول من خلال هذا البحث أيضاً الحديث عن أهم الأسواق المكية وإبراز دورها الاقتصادي والمؤثر في الحركة التجارية، ثم نخرج بالحديث عن أهم العملات النقدية الشائع استخدامها في تلك الأسواق والمتداولة بين الأهالي والتجار، كما سوف نتناول بعض أهم المكايل والموازين ووحدات القياس المستخدمة في عملية البيع والشراء . ومن جانب آخر سوف نتطرق وبشيء من التفصيل إلى أهم الفئات التجارية من تجار محليين وإقليميين وعالميين ونوضح دورهم الكبير في دعم وتطوير الاقتصاد المكي .

ونختتم هذا البحث بالحديث عن أهم العوامل التي ساعدت على تنشيط الحركة التجارية في مكة .

المراكز التجارية في الحجاز:

ارتبطت أهمية المراكز التجارية في بلاد الحجاز بصفة عامة بأهمية الإقليم نفسه ، سواء من الناحية الدينية أو الجغرافية ، فهو يمثل بمقدساته الدينية مكانة سامية في نفوس المسلمين، فضلاً عن موقعه الفريد كحلقة وصل بين تجارة الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وامتداده على طول الحدود الغربية المتاخمة لمعظم الساحل الشرقي للبحر الأحمر واتصاله شمالاً ببلاد الشام وجنوباً باليمن واتصاله براً وبحراً ببلاد مصر وكذلك صلاته البرية القوية ببلاد العراق وارتباطه مع هذه الأصقاع وغيرها بعلاقات تجارية قوية أدت إلى ازدهار حركة التجارة داخله وتمخضت عن نشوء المراكز التجارية فيه .

ويمكن القول أن المراكز التجارية ما هي إلا تلك الحواضر المهمة في بلاد الحجاز والتي لم تقم غالباً إلا في الواحات الخصبة المنتشرة فيه أو الواقعة على امتداد الطرق التجارية، فضلاً عن الموانئ الممتدة على سواحل بحر القلزم (البحر

الأحمر) فهي بذلك تمثل محطات تنتهي إليها تلك الطرق وتربطها بغيرها من المراكز المنتشرة داخل الجزيرة العربية وخارجها .

وغالباً ما تكون تلك الحواضر المتمثلة بالمراكز التجارية مدناً صغيرة امتزجت فيها حياة الحاضرة والبادية^(١) غير أنها قامت على تجارة عظيمة كان لها شأنها وتأثيرها المحلي والعالمي ، ومن أهم تلك المراكز .

مكة المكرمة :

وتقع بين جبال عظام^(٢) في واد منبسط من أودية جبال السراة^(٣) على بعد ٨٤ ميلاً من البحر الأحمر^(٤) وتشرق الشمس عليها من جبل أبي قبيس^(٥) الواقع في الجنوب الشرقي من المسجد الحرام^(٦) وهي بلدة قديمة معمورة مقصودة من جميع أنحاء الأرض^(٧) . وقد وصفها الرحالة ابن جبير^(٨) بأنها كبيرة مستطيلة لها ثلاثة أبواب باب المعلى ويشرف على الحجون وباب المسفل إلى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن وباب الزاهر المعروف بباب العمرة وعليه طريق المدينة .

- (١) أحمد الشريف . مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ص ٩٩ .
- (٢) اليعقوبي . البلدان ؛ تحقيق محمد أمين ضناوي - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ص ١٥٣ .
- (٣) ياقوت الحموي . معجم البلدان ، ج ٢ - بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ٨ .
- (٤) صبحي عبد المنعم . العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين - القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، (د . ت) ، ص ٢١٠ .
- (٥) اليعقوبي . المصدر السابق ، ص ١٥٣ .
- (٦) ناصر خسرو . سفرنامه ؛ تقديم أحمد خالد البدلي ، عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود - الرياض ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ١١٩ .
- (٧) الإدريسي . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ج ١ - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، (د . ت) ، ص ١٣٩ .
- (٨) ابن جبير . الرحلة - بيروت : دار الشرق العربي ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٧٥-٧٦ .

ومما قيل في سبب تسميتها بمكة^(١) ؛ لأنها تمك الجبارين وتذهب نخوتهم ،
أو من الإمتاك وهو الجذب؛ لأنها تجذب الناس إليها^(٢).
وتسمى أيضاً بكة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) وذلك لأنها كانت تبك أعناق الجابرة وتدقها أو لازدحام الناس بها فتبك
أقدامهم من الزحام^(٤).

أما من الناحية التجارية فتعد مكة من أعظم الأسواق في الحجاز ساعدها على
ذلك موقعها الفريد القريب من ميناء جدة مما جعل المراكب التجارية تنتهي إليها من
ذلك الميناء، فتغص بالبضائع والسلع القادمة من مصر واليمن والأنحاء الأخرى^(٥).
والطريق إليها ملتقى الصادر والوارد، وتردها الخيرات والثمرات من كل بقعة
في العالم، فغدت بذلك أكثر البلاد نعماً ومرافق ومصانع ومتاجر^(٦) كما تقع على
طريق القوافل القادمة من الشام إلى اليمن، مما جعلها بالنسبة لتلك القوافل محطة
تجارية مهمة لتوفر الماء وللحصول على المؤن اللازمة لمتابعة الرحلة، فضلاً عن كونها
مركزاً تجارياً مهماً لتبادل السلع مع التجار المتواجدين فيها^(٧).

(١) ولغة مسميات كثيرة لا يسع المجال لذكرها وهي مبسطة لمن أراد الاستزادة في مصادر التاريخ المكي.

(٢) الفاسي . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج ٢ : تحقيق عبد السلام التدمري - ط ١ - ٠٠
بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ / ١٩٩٥م ، ٤٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٩٦ .

(٤) ابن القتيبة . مختصر كتاب البلدان - ٠٠ ليدن ١٣٠٢هـ ص ١٦-١٧ .

(٥) القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٣ : تحقيق محمد حسين - ٠٠ ط ١ - ٠٠
بيروت : دار الكتب ، ١٤٠٧/١٩٨٧م ، ص ٢٥٨ .

(٦) ابن جبير . المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٧) علي السليمان . النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى - ٠٠ ط ١ - ٠٠
القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص ٩٩ .

البضائع والسلع :

لا يختلف اثنان على أن أرض الحجاز أرض شبه جرداء وغير منتجة إلا ما ندر في بقاع خصبة متفرقة فيها، ومع هذا فإنها تعد من أغنى بقاع الأرض تجارة وأوفرها بضائع وسلعاً، وأكبر دليل على هذا دهشة الرحالة ابن جبير عندما زار ذلك الإقليم وبالخصوص مكة وشاهد فيها من الأسواق والسلع والبضائع ما يدهش المرء ويحير العقل حيث قال : (... فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها وآية من آياته خصها الله بها)^(١).

وما خص الله به أرض الحجاز من توافر الغلال والسلع والمتاجر إنما جاء استجابة لدعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾^(٢) وقال تعالى في آية أخرى ﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٣).

وليس من السهل حصر البضائع والسلع التي تباع أو تنتج في مكة، ولكن سنحاول التركيز على أهم تلك البضائع والسلع التي تنتشر في الأسواق المكية ومنها:

الملبوسات والحلي والعمائم:

وهي منتشرة وتباع بكثرة في أسواق الحجاز، وكان هناك سوق بمكة خاص ببيع الثياب الشطوية التي تجلب من مصر من مدينة شطا^(٤) كما اشتهرت الأسواق

(١) ابن جبير . المصدر السابق ، ص ٨٤.

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٣٧.

(٣) سورة القصص ، الآية : ٥٧.

(٤) المقدسي . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ؛ تحقيق محمد مخزوم - ط ١ - بيروت :

دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ ، ص ٧٦ - ٩٨.

المكية بالمتاجرة بالثياب الحريرية والكتانية التي يجلبها التجار من أرض مصر خصوصاً في العصر العبيدي، كذلك وجد في أسواقها أنواع أخرى من الثياب لها بريق ولمعان وتتلأأ إذا انعكست عليها أشعة الشمس^(١).

وكان يرد إلى أسواق مكة من أرض طبرستان ثياب مصنوعة من الخيش وكذلك الأكسية والطيايسة التي يفضلها المكيون^(٢).

وعرف الحجازيون بصفة عامة الثياب المصنوعة من الخز وكانوا يحيكونها بأنفسهم منذ القديم وكثير من علماء مكة اشتغل بهذه المهنة مثل محمد ابن سوجه الضمني الذي جمع من الخز ما يقارب المئة ألف درهم وتصدق بها في مكة^(٣).

وعن علاقة مكة التجارية بأرض اليمن فقد كان بينهما تبادل للسلع وكانت اليمن مشتهرة بالحاقة الذين يحيكون الثياب والملبوسات ثم يحملها التجار بدورهم إلى الأسواق المكية حيث يبيعونها هناك^(٤).

ويشير الزهري^(٥) إلى أنه يصنع في أرض الحجاز عامة البرود اليمنية والوشي الصنعاني والأديم المدبوغ ثم يصدر منها إلى أصقاع أخرى .

ويستورد التجار المكيون من أرض مصر الأقمشة المعروفة بالقباطي وهي

(١) أحمد السباعي . تاريخ مكة ، ج ١ - ط ٧ - مكة المكرمة : مطبوعات نادي مكة الأدبي ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ص ٢٤٩ .

(٢) المقدسي . المصدر السابق ، ٢٨٢ .

(٣) العجلي . تاريخ الثقات : تحقيق عبد المعطي قلعجي - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م . ص ٤٠٥ .

(٤) الغرناطي . تحفة الألباب ونخبة الإعجاب : تحقيق إسماعيل العربي - ط ٢ - بيروت : دار الجيل ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ص ٧٨ - ٨٠ .

(٥) ابن أبي بكر الزهري . كتاب الجغرافية : تحقيق محمد حاج صادق - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، د ت ، ص ٣٦ .

سلعة قديمة كانت قريش تتاجر بها قبل الإسلام^(١)، كما كانوا يستوردون الديباج والجلود والفرا^(٢).

وكان للطبقة الراقية من المجتمع المكي ثيابهم الخاصة التي يحرص التجار على جلبها لهم وهي الثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضة وكذلك العمائم المزركشة بما يشبه القصب^(٣).

وتصدر البحرين إلى أسواق مكة عبر الطريق التجاري الذي يربط بينهما الفوط والثياب البحرينية الشهيرة التي تصنع في الأحساء، فضلاً عما تصدره إليها من سلع كثيرة عبر هذا الطريق^(٤).

وكان الحجاج العراقيون بعد الانتهاء من أداء مناسك حجهم يقومون بارتياح الأسواق المكية بكثرة ليشتروا منها الثياب المصرية والبضائع اليمنية ثم ينقلونها معهم إلى العراق^(٥)، ويدل هذا على قوة العلاقات التجارية بين العراق ومكة. واشتهر عن التجار المكيين تصديرهم الجلود المدبوغة والبيلسان إلى مصر^(٦)، كما كانوا يستوردون العمائم المعروفة بعمائم السكب من العراق^(٧).

ويصل إلى مكة من الهند ومن أرض المشرق الثياب والعمائم المنسوجة من

(١) أحمد الشريف. المرجع السابق ، ص ٢٢٨.

(٢) صبحي عبدالمنعم. المرجع السابق ، ص ٣٠٧.

(٣) أحمد السباعي. المرجع السابق ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) ابن الفقيه . المصدر السابق ، ص ٣٠.

(٥) ابن الجوزي . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ١٤ : تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ص ٣٢٧.

(٦) عطية القوسي . تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط العباسية - القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٧٦م، ص ٢٧.

(٧) ابن أبي بكر الزهري. المصدر السابق، ص ٣٦.

الحريز والكتان والقطن^(١) وكانت هذه الأخيرة وغيرها ترد إلى الأسواق المكية عبر الطريق البري الممتد من الصين إلى بلاد الحجاز^(٢).

واشتهرت الأسواق المكية ببيع الأديم والرمل المكي وحجر المحك والنعال المشعرة والملمعة^(٣).

ومن السلع التي تدخل في الأنسجة والملبوسات ما يعرف بالأصباغ والتي ترد إلى مكة من مصر^(٤) وكذلك الألوان والورس الذي يستخدم في صبغ الملابس وتستخدمه النساء للتجميل^(٥) كما تستخدم الحلي والثياب الفاخرة^(٦).

وتستورد أسواق مكة الكثير من العطور كالعود والمسك من بلاد الهند^(٧) وكذلك العنبر المعروف بالعنبر الزنجي والذي يأتي من بلاد الزنج ويعد من أجود الأنواع ويأتي بعده من حيث الجودة العنبر السلاطيني الذي يأتي من عدن وكذلك العنبر الهندي وغيرها من الأنواع^(٨).

ومن منطقة الشرق الأقصى يرد إلى مكة العود الفاخر والبخور والكافور

(١) ياقوت الحموي. المصدر السابق، ج ٥ ، ص ٤٠٣.

(٢) عطية القوصي . المرجع السابق ، ص ٢٠٧.

(٣) مؤلف مجهول . حدود العالم من الشرق إلى الغرب؛ تحقيق يوسف الهادي - ط ١ - القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص ١٢٤.

(٤) الرشيد . حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج ؛ تحقيق ليلى عبداللطيف أحمد - ط ٢ - مصر : مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م، ص ٤٦ - ٤٧.

(٥) البكري . المسالك والممالك ؛ تحقيق أدريان فان وأندي فيري - تونس : المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ١٩٩٢م، ص ٢٣.

(٦) علي السيد محمود . جدة إحدى مراكز التجارة العالمية في العصور الوسطى ، مجلة الدارة ، ع ٤ ، س ٢٩ سنة ١٤٢٤هـ ، ص ٦٧.

(٧) ابن أبي بكر الزهري. المصدر السابق، ص ٣٦.

(٨) اليعقوبي . المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٠٦.

والخزف والأحجار الكريمة والياقوت والذهب والحلي والمسك^(١) وكذلك يوجد في أسواقها الصندل والعاج واللؤلؤ^(٢).

ومما يباع في أسواقها أيضاً المسك الذي يأتي من بلاد التبت ويعد من أحسن وأغلى أنواع المسك في العالم، ثم يليه في الجودة المسك الصيني الوارد من ميناء خانقوه الصيني، كما يباع فيها أيضاً العود المسمى بالقشور وهو أعذب رائحة من غيره وكذلك العود المنطاوي والعود اللوطني، وكلها ترد إلى الحجاز من الصين^(٣).

وقد وصف ابن جبير^(٤) أسواق مكة أيام الموسم بأنها تمتلئ بالكثير من السلع والذخائر النفيسة والمسك والكافور والعنبر والعود والأمتعة الهندية والحبشية والعراقية واليمنية والخراسانية والمغربية.

المنتجات الزراعية والسلع الغذائية والطبية:

من المعلوم أن طقس مكة يغلب عليه الحرارة العالية وأن أرضها تعتبر أرضاً غير منتجة زراعياً إلا ما ندر مما لا يوفر لأهاليها كفايتهم من المنتجات الغذائية والمستلزمات الضرورية ، ومع هذا فإن أسواقها تكاد تغص بالكثير من المنتجات الزراعية التي لا تنقطع عنها صيفاً وشتاءً^(٥)، ويعزى هذا الأمر إلى الارتباط التجاري الوثيق وشبه الدائم بين الأسواق المكية وغيرها من الأسواق في داخل الإقليم نفسه أو خارجه ، والتي بدورها تصدر إليها الكثير والجديد مما تنتجه أرضها، حيث تلقى تلك السلع رواجاً كبيراً خصوصاً في أيام الموسم .

(١) ياقوت الحموي. المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٠٦.

(٢) المقدسي. المصدر السابق، ص ٩٧.

(٣) اليعقوبي . المصدر السابق ، ص ٢١٢.

(٤) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٨٤.

(٥) ناصر خسرو. المصدر السابق، ص ١٤١.

وقد أشار ابن جبير^(١) إلى ما يباع في أسواق مكة من منتجات زراعية وذكر منها العنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار والبادنجان والسلجم واليقطين والجزر والكرب، ثم ذكر أن الكثير من هذه الخضروات والفواكه لا تتقطع عنها طوال العام.

وأدى التقارب الجغرافي بين مكة والطائف دوراً أساسياً في وفرة المنتجات الزراعية عالية الجودة في أسواق مكة ، حيث كان التجار المكيون يجلبون إليها الكثير من أنواع الفواكه التي تزرع في أرض الطائف كالبطيخ الطائفي والقثاء والخيار والجزر والملوخية والكرب واليقطين، عدا البقوليات المتنوعة كالقول والبازلاء والحمص واللوبياء والبصل والثوم والفجل والكرات^(٢).

ويصف ابن جبير^(٣) البطيخ الذي يباع في أسواق مكة بأنه طيب المذاق كأنه مشاب بسكر مذاب وأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، ويذكر أيضاً أنه يباع فيها اللحوم بأنواعها وكذلك قصب السكر والحلوى والسمن واللبن والعسل.

أما عن التمور فكان التجار المكيون يستوردونها من أسواق المدينة في الغالب ويعد التمر البرني من أشهرها^(٤)، كما أنهم كانوا يستوردون أنواعاً أخرى من التمور من إقليمي اليمامة وهجر^(٥).

(١) ابن جبير. نفس المصدر، ص ٨٤.

(٢) القلقشندي. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤) ابن حبان . الثقات - ط ١ - ٠ - حيدرآباد : دائرة المعارف العثمانية. ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م، ص ٦.

(٥) أبو الفرج الأصبهاني . الأغاني، ج ٢، مصور عن طبعة دار الكتب - بيروت، ١٢٨٣هـ / ١٩٦٣م، ص ٣٨٩.

ويعد القمح من السلع الزراعية النادرة في مكة، إلا أن أهالي مكة يفضلون الاعتماد عليه في طعامهم وإذ لم يتوفر لهم فإنهم يستبدلونه بالشعير، كما أنهم في الغالب يفضلون أكل لحوم الإبل والجواميس وبعض الفواكه كالموز والعنب. أما عن الزيت والسويق فإنهم يستوردونه من بلاد الشام^(١).

وكان العسل يرد إليها من اليمن وهو أنواع أشهرها وأجودها العسل الفاخر الجامد الذي يأتي بأوانٍ من القصب من اليمن إلى مكة، وكان من شدة تجمده أنه لا يقطع إلا بالسكين، كما يصل إلى أسواق مكة نوع آخر من العسل مصنوع بشكل قوالب مختلفة الأحجام^(٢).

أما عن الفواكه التي تصدرها اليمن إلى أسواق مكة فأشهرها العنب والزبيب^(٣) الأسود والأحمر واللوز^(٤) والرمان والسفرجل والمشمش والتفاح والخوخ والكمثرى والجوز واللوز وغيرها^(٥).

وأشار المقدسي^(٦) إلى أن التجار المكيين يستوردون الدقيق والكعك من مدينة مشتول المصرية المشتهرة بالطواحين، وذكر أنه أحصى في وقت من سنة ما يحمل إلى الحجاز من هذه السلع فإذا هو يبلغ قرابة الثلاثة آلاف حمل في كل أسبوع وكلها دقيق وحبوب، كما أشار إلى أن أسواق مكة يباع فيها التمور والزيوت والتوابل.

(١) ابن أبي بكر الزهري. المصدر السابق، ص ٣٦.

(٢) الهمداني. صفة جزيرة العرب؛ تحقيق محمد علي الأكوع؛ إشراف حمد الجاسر -

الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ص ٢٠٠.

(٣) الهمداني. المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٤) ابن جبير. المصدر. المصدر السابق، ص ٨٥.

(٥) الهمداني. المصدر السابق، ص ١٩٨ - ٢٠٢.

(٦) المقدسي. المصدر السابق، ص ٩٦.

وكان التجار يجلبون إلى الأسواق المكية الفلفل والقرنفل والبهار والزنجبيل والزعفران والكركم والهال "الحبهان" من بلاد الهند والمشرق وأفريقيا عبر بلاد اليمن^(١).

وكانت التوابل تحقق أرباحاً طائلة تصل إلى أرقام خيالية للمتاجرين فيها والعاملين على نقلها^(٢) فقد بلغ حمل الفلفل الذي يباع في تجارة البحر الأحمر مبلغاً يتراوح ما بين خمسين إلى مئة وخمسة وعشرين ديناراً^(٣).

ومن السلع التي تحملها القوافل التجارية إلى أسواق مكة الزعفران والقلم والساج والسماسم والنارجيل والإسكنداروس والصبر^(٤).

ويشير الرحالة ناصر خسرو^(٥) إلى اشتهاار سوق العطارين بمكة في بيع الأدوية والعقاقير الطبية والحشائش.

وذكر المقدسي^(٦) أن مكة تشتهر بإنتاج السنا، ويعرف بالسنا الحرمي ويصدر من مكة إلى الآفاق الأخرى^(٧) وهو من النباتات الطبية واقترن اسمه بمكة لشهرتها به^(٨)

(١) نعيم زكي . طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب - القاهرة : المكتبة العربية ، ١٩٧٣م ، ص ٥١ ؛ على السليمان . المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢) سعاد الحسن . النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣) ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ١٣٨ .

(٣) عطية القوصي . المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) المقدسي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٥) ناصر خسرو . المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٦) المقدسي . المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(٧) البكري . المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(٨) ابن قيم الجوزية . الطب النبوي - مكة المكرمة ، ص ٢١ .

وجاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «عليكم بالسنا والسنوت فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام، قيل يا رسول الله وما السام قال: الموت»^(١).

الثروة الحيوانية البرية والبحرية:

اعتمد المكيون منذ القدم على الإبل في أسفارهم وتنقلاتهم كما اعتمدوا عليها في طعامهم، وكان للبيئة التي يعيشون فيها أثر كبير في هذا، فالإبل بطبيعتها التي خلقها الله عليها متكيفة مع تلك البيئة الصحراوية التي تغطي أغلب أرض الجزيرة العربية بما فيها إقليم الحجاز، ومن هذا ندرك بما لا يدع مجالاً للشك أن تجارة الإبل في أرض الحجاز عموماً ومكة على وجه الخصوص كانت رائجة منذ القدم واستمرت وما زالت حتى يومنا هذا.

وإلى جانب تجارة الإبل هناك أصناف أخرى من الماشية كالضأن والماعز والأبقار، وتلك الأخيرة لم تلق رواجاً كسابقاتها وذلك لعدم توافر الأعشاب الكافية لها^(٢).

وكان لموسم الحج أثره الكبير في ازدهار تجارة الماشية في مكة خصوصاً الإبل والضأن والماعز وذلك لإقبال الحجاج على انتقاؤها لإقامة شعيرة النحر تقريباً إلى الله سبحانه وتعالى.

ولأن الجمال سلعة مطلوبة وتلقى الإقبال الشديد، فقد أدت دورها في عملية التصدير والاستيراد، حيث كان التجار المكيون يصدرونها إلى بلاد الشام، كما كانوا

(١) ابن ماجه. سنن ابن ماجه، ج ٢؛ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - ط ٢ - بيروت: دار

الفكر، ص ١٤٤.

(٢) القلقشندي. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٨.

يستوردون الهجن من بلاد السودان عن طريق ميناء جدة، وكذلك يستوردون الجمال ذات السنامين المعروفة بالبختي من بلاد ما وراء النهرين^(١) ومن بلاد البجة في أفريقيا كانوا يستوردون جمال البجة الشهيرة المسماة بالنجيبة^(٢).

أما عن تجارة الخيول فهي الأخرى لقيت رواجاً كبيراً في أسواق مكة وكانت ترد إليها من مصر، خصوصاً الخيول الأميرية المهداة إلى أمير مكة^(٣) كما يرد إليها أنواع أخرى من الخيول تأتي من بلاد المشرق^(٤).

وباع في أسواق مكة الأفراس العتيقة الغالية الثمن والتي يندر وجودها في غير أسواق مكة^(٥) وكذلك يباع فيها الخيول العربية الأصيلة التي تفوق الوصف حسناً وتسابق البرق سرعة^(٦).

وكان التجار المكيون يصدرون الخيول إلى بلاد الهند عن طريق اليمن وكانت المتاجر فيها تحقق أرباحاً طائلة^(٧).

وأشرنا سابقاً إلى أن المكيين كانوا يعتمدون في طعامهم على لحوم الإبل والجواميس وهذا يعطينا دلالة واضحة على انتشار تجارة الجواميس أيضاً وأنها كانت رائجة في أسواق مكة.

(١) المقرزي . السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤؛ تحقيق محمد مصطفى زيادة - ط ٢ - القاهرة:

لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٦م، ص ١١٣.

(٢) ناصر خسرو . المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٣) ناصر خسرو . المصدر نفسه ، ص ١٣٢.

(٤) ياقوت الحموي . المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٧.

(٥) ابن أبي بكر الزهري . المصدر السابق، ص ٣٦.

(٦) القلقشندي . المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٧) سعاد الحسن . المرجع السابق، ج ٤، ص ١٩٧.

واشتهرت أرض الحجاز عموماً بأنواع كثيرة من الطيور، وكان المكيون يتاجرون بها وخصوصاً طيور البازي والعاذي والدجاج والحداة والرخم^(١). ويذكر قدامة البغدادي^(٢) أن هناك في السیالة - وهي موضع في الطريق بين مكة والمدينة - وتسمى الروحاء^(٣) سوقاً يباع فيه الصقور والشواهين، ومنه نستنتج أن التجار من أهل مكة كانوا يردون تلك السوق فيبيعون ما يملكون من أنواع الطيور كما يشترون أنواعاً جديدة من الطيور التي يحتاجون إليها. وعن الثروة السمكية فقد أشار الإدريسي^(٤) أنه يباع في أسواق مكة الأسماك التي تأتي من جدة وكذلك أشار إلى كثرة مصائد الأسماك في بحر جدة. وإشارة الإدريسي إلى كثرة المصائد في بحر جدة تعطينا تصوراً واضحاً عن انتشار تجارة الأسماك بها وكثرة الذين يمتنون تلك التجارة، كما تعطينا دليلاً قوياً على أن ميناء جدة يعد سوقاً ممتازاً لتصدير الأسماك إلى المدن والأرياف الحجازية الأخرى وبالخصوص الأسواق المكية لقربها من جدة، وأن الطلب على لحوم الأسماك قد لقي إقبالا كبيراً من المجتمع المكي بجانب أنواع اللحوم الأخرى. أما عن أنواع الأسماك التي تصل إلى مكة من جدة فهناك سمك الكنعد الشهير والبوري والسردين والبياض والرق وغيرها من الأنواع الأخرى^(٥).

- (١) البكري . معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضع ، ج ١ : تحقيق مصطفى السقا - ط ٢ - بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٤٠ .
- (٢) قدامة البغدادي . المنزلة الخامسة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ؛ تحقيق طلال جميل رفاعي - ط ١ - مكة المكرمة : مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٧٣ .
- (٣) ابن رسته . الأعلاق النفيسة ؛ تحقيق خليل منصور - ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، ص ١٥٦ .
- (٤) الإدريسي . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٨ .
- (٥) جميل حرب . الحجاز واليمن في العصر الأيوبي - ط ١ - جدة : تهامة للنشر ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ١٢٦ .

العقارات والدور :

ازدهرت تجارة العقارات والدور في مكة في القرنين الخامس والسادس الهجريين وما بعدهما ، فقد كان التجار من أهل مكة وغيرهم يؤجرون الدور ويبيعونها للحجاج والمعتمرين ، وقد أشار المقدسي^(١) إلى ذلك بقوله : «ومستغلاتهم الدور» . ويشير الجزيري في أكثر من موضع إلى إقبال أهل مكة على شراء الدور والأملاك وتعمير القصور ، كما يذكر أن هذا النوع من التجارة كان له مردود مادي كبير على التجار المكيين الذين اشتغلوا بها حتى أنهم أقبلوا على شراء الذهب والفضة لنسائهم من عائدات هذه التجارة^(٢) .

وقد تنافس على الاشتغال بهذه التجارة من غير المكيين التجار الوافدون من بلاد المشرق وبلاد المغرب والشام واليمن وغيرها .

ففي سنة ٤٢٣هـ أقبل عدد من التجار المغاربة على شراء دار عثمان ابن عفان رضي الله عنه وجعلوها رباطاً ووقفاً لطلاب العلم من بلادهم^(٣) .

وأقبل تجار الشام على استثمار عدد من الدور في مكة وقاموا ببناء رباط أسموه رباط الدمشقية نسبة إلى مدينة دمشق وكان ذلك سنة ٥٢٩هـ وجعلوه وقفاً على علماء الشام والحجاج والمجاورين^(٤) .

(١) المقدسي . المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٢) الجزيري . الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، ج ١ ؛ تحقيق محمد حسن إسماعيل - ط ١ - ٠ - مكة المكرمة : مكتبة عباس أحمد الباز ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ص ٣٧٤ .

(٣) ابن فهد . إتحاف الوري بأخبار أم القرى ، ج ٢ ؛ تحقيق فهد شلتوت - ط ١ - ٠ - القاهرة : مكتبة الخانجي ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ، ص ٢٦ .

(٤) الفاسي . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

وقام بعض التجار الحضارمة في سنة ٥٧٠هـ بتأسيس رباط في أجياد بمكة ودعوه رباط الحضارمة وجعلوه وقفاً لطلبة العلم والحجاج القادمين من اليمن^(١). وأدى التجار القادمون من مدينة بخارى في المشرق الإسلامي دورهم الكبير في الاستثمار العقاري في بلاد الحجاز عامة ومكة على وجه الخصوص، حيث كانوا يقومون بشراء الدور ويحولونها إلى أربطة لطلاب العلم القادمين من بلادهم أو يجعلونها سكناً للمجاورين والمنقطعين القادمين من بلاد الشرق^(٢)، ففي سنة ٥٧٩هـ قام بعضهم بشراء دارٍ في مكة وحوّلها رباطاً للفقراء والحجاج القادمين من بخارى^(٣). ومما لا شك فيه أن تجارة العقار والدور قد أسهمت بشكل كبير في إعمار مكة وجعلها واجهة حضارية وعمرانية تنافس مثيلاتها من المدن الأخرى في البلدان الإسلامية، وكما سبق وأن ذكرنا بأن هذه التجارة قد عادت بمردود مالي كبير على أصحابها، فهذا لا ينفي بأن غرض هؤلاء التجار - بجانب الربح المالي - كان طلباً للأجر والثوبة من الله وتشرفاً بخدمة الحجاج وطلاب العلم فضلاً عن تعمير أفضل البقاع وأقدسها وأحبها إلى الله.

الآلات الزراعية والحربية :

في حقيقة الأمر لم أجد فيما توافر لدي من مصادر تتناول جوانب التجارة والاقتصاد في مكة ما يدل على أن الآلات الزراعية كانت تصنع فيها أو أنها كانت تلقى رواجاً كبيراً في أسواقها مقارنة بغيرها من السلع كما لم أجد أيضاً ما ينفي ذلك، وربما أن هذا الأمر عائد إلى أن مكة، وكما عُرِفَت على مر التاريخ لم تكن

(١) الفاسي . المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٣٢.

(٢) المراغي . تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة: تحقيق محمد عبد الجواد - ط ٢ - المدينة المنورة : المكتبة العلمية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ٥٦.

(٣) الفاسي . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٣.

بتلك الأرض المشهورة بخصوبتها أو وفرة مياهها ، كما وصفها القرآن الكريم بأنها وادٍ غير ذي زرع .

ولكن يجب أن نذكر أن هناك عدداً لا بأس به من القرى والأرياف المحيطة بها والقريبة منها كانت معروفة بخصوبة أرضها ووفرة الزراعة فيها وأشهرها كما سبق وأن ذكرنا بلدة الطائف التي عُرِفَتْ بتصدير ما تحتاجه الأسواق المكية من محاصيل زراعية إليها، زيادة على ذلك أن مكة وعلى مر التاريخ اشتهرت بعلاقاتها التجارية مع الكثير من المدن الزراعية داخل إقليم الحجاز وخارجه كالمدينة وخيبر والشام واليمن وغيرها .

وكل ما سبق ذكره يعطينا تصوراً واضحاً وهو إن لم تكن مكة تصنع فيها الآلات الزراعية، فإنه كان يرد إلى أسواقها الكثير منها وذلك لحاجة المزارعين من الذين يفدون إليها بقصد الحج والعمرة ومن ثم يترددون على أسواقها لغرض البيع والشراء والتزود بكل جديد مما يباع في أسواقها من منتجات زراعية تخصهم، فهناك من يأتي من الطائف أو إحدى القرى القريبة من مكة ليبيع ما يحمل من آلات زراعية قد يستفيد منها آخر قدم من إقليم بعيد كالشام أو اليمن أو من داخل الإقليم كالمدينة ومن ثم يشتري ما يراه من جديد هذه الآلات مما جلبها آخر جاء من مدينة أو إقليم زراعي بعيد وهكذا .

أما عن تجارة الآلات الحربية فقد اشتغل التجار المكيون ببيع الأسلحة المتنوعة، وكانت السيوف تصنع بمكة والمدينة^(١) كما كان يصل إلى الأسواق المكية أنواع متعددة من السهام من أشهرها: السهام المعروفة بالرقميات والتي تنسب إلى بلدة رقم قرب مكة^(٢).

(١) جميل حرب. المرجع السابق، ص ١٢٦ .

(٢) ياقوت الحموي. المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٧ .

وعن كيفية صناعة السيوف في مكة، فقد كان حديد الفولاذ يرد إليها كمادة خام ومن ثم يقوم الحرفيون ممن يمتنون الاشتغال بالحدادة بتصنيع السيوف من هذه المادة، وأحياناً تستورد السيوف مصنوعة ومصقولة من الهند وتعرف بالسيوف الهندية^(١). وكانت بعض أنواع السيوف ترد إلى أسواق مكة من اليمن وهي من أجود أنواع السيوف وأصلبها وتعرف بالسيوف اليمانية^(٢). وقد يضيف المكيون بعض الأشكال الجمالية على السيوف والخناجر وذلك بترصيعها بالأماس والفضة والعقيق التي تجلب من الهند^(٣).

الأسواق:

عرفت أرض الحجاز عامة ظاهرة انتشار الأسواق منذ عهد قديم، وكان يمارس فيها التجارة بشتى أنواعها وانتشر الكثير منها حول مكة، ومما ساعد على انتشار الأسواق في مكة والقرى المحيطة بها عاملان مهمان هما: العامل الديني والعامل الجغرافي. ويتلخص العامل الديني في مقدم الكثير من المسلمين إلى مكة لأداء فريضة الحج أو العمرة، حيث كانوا ينتفعون - بعد العبادة - بالتجارة بيعاً وشراءً. ويمكن القول إن العامل الديني وتوافد الكثير من المسلمين إلى مكة أدى إلى ظهور ما يسمى بالأسواق الموسمية التي تقام أيام مواسم الحج أو العمرة، وكذلك أدى نشاط الحركة التجارية بين الشرق والغرب وانتشار تجارة التوابل والسلع المتنوعة إلى ازدهار هذه الأسواق^(٤).

(١) نعيم زكي، المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٢) على السيد محمود . المرجع السابق ، ص ٦٧.

(٣) الجزيري . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥٧.

(٤) سعاد الحسن. المرجع السابق، ص ٢٧٦.

أما العامل الجغرافي فيتضح بالموقع الفريد الذي تتميز به بلاد الحجاز عامة ومكة على وجه الخصوص، حيث ملتقى الطرق التجارية المتصلة بين بلاد الشرق والغرب مما ساعد على نشوء الأسواق الدائمة التي يحتاجها التجار لعرض تجارتهم المحلية والعالمية. ومن الأسواق القديمة التي قامت في مناطق قريبة من مكة وأدت دوراً كبيراً في حركة التجارة فيها سوق عكاظ ومجنة وذو مجاز واستمرت هذه الأسواق في أداء دورها التجاري حتى أواخر العصر الأموي، بالإضافة إلى سوق حباشة الذي استمر حتى سنة ١٩٧هـ حيث خربه والي مكة في تلك الحقبة^(١).

أما في القرنين الخامس والسادس الهجريين، فقد قامت في مكة الكثير من الأسواق وأغلبها تركزت حول المسجد الحرام ومنها ما يعرف بسوق المسجد الحرام وهو سوق كبير يمتد من شمال المسجد إلى جنوبه ويقع مدخل السوق الرئيس في الجهة الجنوبية عند سفح جبل أبي قبيس وتصطف فيه الكثير من الدكاكين^(٢).

وقد زار ابن جبير هذا السوق وذكر أنه سوق عظيم يباع فيه من الدقيق إلى العقيق ومن البر إلى الدر، وأشار إلى أن معظمه يقع في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال وفي البلاط الشمالي الشرقي من المسجد وذكر أن سوق الدقيق يقع بدار الندوة إلى جهة باب بني شيبه^(٣).

أما سوق المروة فقد حدد ناصر خسرو موقعه عند نهاية المروة، وذكر أنه أحصى الدكاكين الخاصة بالحلاقة فيه فوجدها عشرين دكاناً، كما أشار إلى أن هذا السوق إنما هو امتداد طبيعي لسوق كبير يقع شرق المسجد الحرام يقال له

(١) الفاسي. عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى، (مخطوط) - المدينة المنورة: مكتبة عارف حكمت، رقم (١٤٨ / ٩٠٠)، ق ٢٦٥ أ - ب.

(٢) ناصر خسرو. المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٣) ابن جبير. المصدر السابق، ص ١٣٧.

سوق العطارين وهو سوق كبير يباع فيه العقاقير الطبية والحشائش^(١) والعطور الواردة من الشرق الأقصى^(٢).

وقد عرفت أسواق مكة التخصص، حيث يجتمع أصحاب المهن المتعددة قرب بعضهم ويشكلون سوقاً واحداً تباع فيه السلع المتنوعة كل حسب مهنته وأقرب ما يكون بالمجمعات التجارية الحالية التي تضم عدداً من المحال التجارية المتنوعة والواقعة تحت سقف واحد.

ومن أشهر هذه الأسواق المكية سوق الليل الذي يضم تحت سقفه مجموعة من التخصصات المهنية والمحال التجارية المتنوعة، فكان فيه سوق خاص بالحدادين وآخر للفاكهة والتمور بالإضافة لمكان خصص لبيع الرقيق^(٣).

وأشار الأزرقى^(٤) إلى سوق البزازين وذكر أنه يقع بأجباد بجانب الصيارفة، ويقع سوق الخزازين وسوق البرامين بمكة في شارع يقال له شارع المروة^(٥).

وسوق الحناطين ملاصق للمسجد الحرام عند دار زبيدة، وسوق الخلقان قريب من المسجد عند باب بني هاشم^(٦).

أما سوق الحدادين فيقع داخل سوق الليل مقابل سوق الفاكهة وسوق الرطب^(٧).

(١) ناصر خسرو. المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٢) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣) الفاكهي. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثة، ج ٣: تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش - ط ١ - مكة المكرمة: مطبعة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٤) الأزرقى. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج ٢: تحقيق رشدي ملحس - ط ٨ - مكة المكرمة: دار الثقافة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ص ٢٥٩.

(٥) الفاكهي. المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٥.

(٦) الأزرقى. المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥، ٢٤٩.

(٧) الأزرقى. المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٩.

ومن الواضح أن سوق الجزائر كانت مشتهرة ومنتشرة في أكثر من موقع فقد ذكر الفاكهي^(١) وجود سوق لهم في المسفلة وسوق آخر في شعب الليل وثالث عند باب بني جمح.

وهناك سوق خاص لبيع الحطب^(٢) وآخر للعلافة بأسفل مكة وسوق آخر مخصص لبيع اللبن والحشيش^(٣).

وإن كانت إشارة الأزرقى والفاكهي إلى هذه الأسواق المتخصصة كانت متقدمة (القرن الثالث الهجري) إلا أننا ذكرناها هنا؛ لأن أغلبها بقي يؤدي دوره حتى الفترة الزمنية التي يتناولها البحث أي القرنين الخامس والسادس الهجريين.

أما سوق الماشية فقد تناثرت في أماكن متفرقة من مكة فكان هناك سوق خاص ببيع الغنم يقع بأعلى مكة^(٤) وآخر لبيع البقر والحمير^(٥) وسوق خاص لبيع الإبل^(٦) بالإضافة إلى مكان يخصص لبيع الدواجن^(٧).

وسبق أن أشرنا إلى سوق الروحاء الواقع بين مكة والمدينة، حيث تباع الصقور والنشواهين، كما أشار المقدسي^(٨) إلى سوق كبير في بلدة جيلة التابعة لمكة وذكر أنه مليئ بالمتاجر.

(١) الفاكهي. المصدر السابق، ٤، ص ١٩٥، ٢١٠.

(٢) الأزرقى. المصدر السابق ج ٢، ص ١٢٦.

(٣) الفاسي . تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام، (مخطوط) - المدينة المنورة : مكتبة عارف حكمت، ق ١٤٥ - أ.

(٤) الأزرقى. المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٢.

(٥) الفاكهي. المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٩، ٢٩٩.

(٦) الزبير بن بكار: جمهرة نسب قریش وأخبارها، ج ١؛ تحقيق محمود شاكر - القاهرة : مطبعة المدني، (د . ت)، ص ٣٦٤.

(٧) الفاكهي. المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٦.

(٨) المقدسي. المصدر السابق، ص ٨١.

وعن الأسواق الموسمية، فقد ذكر ابن جبير^(١) أنه يقام بمكة في موسم الحج سوق عظيم يباع فيه الكثير من السلع المتنوعة التي تجلب من أصقاع شتى وأماكن متفرقة ومدة هذا السوق ثمانية أيام .
وأشار الرحالة ناصر خسرو^(٢) في أثناء زيارته الرابعة لمكة؛ لأداء فريضة الحج إلى الأسواق الموسمية التي تقام مدة ذلك الموسم حول محيط المسجد الحرام .
ومن الأسواق الموسمية سوق منى وهو من أعظم الأسواق وأكبرها يباع فيه من الجوهر النفيس إلى الخرز وغير ذلك من الأمتعة والسلع^(٣) .
وهناك سوق موسمية بالأبطح بمكة تشهد نمواً تجارياً في مواسم الحج وتزخر بها السلع والمتاجر^(٤) .
وهناك موسم خاص لبيع التوابل الواردة من المشرق إلى الحجاز تقام لها الأسواق مدة رواجها كل سنة^(٥) .

النقود والمكايل والموازين :

كان النقد المتداول في مكة منذ العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام الدينار والدرهم، ومعلوم أن الدينار عبارة عن عملة ذهبية والدرهم عملة فضية ، وكان التعامل بهما دارجاً في بلاد الشام والعراق، مما يدل على الصلات التجارية الوثيقة بين مكة وتلك الأقاليم، ولم يكن الدينار أو الدرهم عملة مكية ولم يستصدر المكيون

(١) ابن جبير . المصدر السابق، ص ٨٤ .

(٢) ناصر خسرو . المصدر السابق، ص ١٣٧ .

(٣) ابن جبير . المصدر السابق، ص ١٣٥ .

(٤) أبو الفرج الأصبهاني . الأغاني ، ج ٢ ، مصور عن طبعة دار الكتب - بيروت ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م ، ص ٣٤٣ .

(٥) سعاد الحسن . المرجع السابق، ص ٢٧٦ .

أي عملة خاصة بهم في ذلك الوقت، بل كانوا يتعاملون بالدينار والدرهم، كما أشرنا، بالإضافة إلى بعض العملات الأجنبية الأخرى المتداولة في ذلك العصر^(١).
وذكر المقدسي^(٢) أن أهل مكة كانوا يستخدمون نقوداً مختلفة، وشاع عندهم تداول المطوقة وهي نوع من النقد وكذلك استخدموا العُثْرية^(٣) وتزان ثلثا مثقال^(٤) وقد تزيد العُثْرية على المطوقة بدرهم .
وكذلك استخدم أهل مكة بعض العملات المؤقتة منها عملة تسمى المُزْبِقة^(٥) يبطل التعامل بها خلال موسم الحج.
وبطال التعامل بهذه العملة في موسم الحج يعطينا دلالة على ضعف قيمتها وأنها لا تستطيع الصمود أمام العملات القوية التي يجلبها الحجاج القادمون إلى مكة من أنحاء شتى.

(١) الواقدي . مغازي رسول الله ، جماعة نشر الكتب القديمة ٠ - القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٢٢ .

(٢) المقدسي . المرجع السابق ، ص ٩٤ .

(٣) وهي منسوبة لمدينة عثر في المخلاف السليماني . محمد أحمد العقيلي . تاريخ المخلاف السليماني ؛ مراجعة وإشراف ، حمد الجاسر ٠ - ط ٢ ٠ الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ١٦٨ . وقد بين الدكتور عبد العزيز السنيدي أنه لم يجد . في المصادر المتوافرة . أي معلومات أخرى تفيد حول هذه العملة . مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . المؤلف ٠ - ط ١ ٠ الرياض ، ١٤٢٧هـ ، ص ٨٣ .

(٤) يساوي المثقال (٢٥ ، ٤) غرامات ، والدرهم يساوي سبعة أعشار المثقال ، أي كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل . وكان يطلق على الدينار لفظ المثقال . عبد العزيز السنيدي . مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، ص ٨٤ .

(٥) وتساوي هذه العملة أربعة وعشرين مثقالاً . صالح بن أحمد الضويحي ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز في الفترة من ٤٠٢ - ٥٥٧هـ ، (رسالة ماجستير) ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، ص ١٢٠ .

كذلك يدل هذا العمل على وعي التجار المكيين ومعرفتهم التامة بأسعار وقيمة العملات العالمية آنذاك وإدراكهم لخطر التعامل بالنقود الضعيفة أمام النقود القوية وتأثير ذلك على اقتصاد بلدهم.

وفي القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس سجلت النقود العبيدية حضوراً قوياً في مكة، وانتشرت بشكل كبير وشاع استعمالها نظراً لقوة النفوذ العبيدي على أرض الحجاز فترات طويلة من ذلك الزمان والارتباط التجاري الوثيق بين البلدين^(١).

وأشار ابن المجاور^(٢) في حديثه عن مكة إلى استخدام أهلها النقد الذهبي المضروب فيها على عيار الدينار المصري.

ونستنتج من هذا أن ذلك النقد كان يضرب في بلاد الحجاز وأن هناك داراً لضرب النقود في مكة في العصر العبيدي وأن العملة الحجازية كانت مرتبطة بشكل وثيق بالعملة المصرية.

ومن العملات التي انتشرت في مكة وراج استعمالها في العصر العبيدي الدينار النيسابوري وشاع استخدامه زمن قحط أصاب مكة حتى بيعت أربع قطع من الخبز بدينار نيسابوري واحد^(٣).

ولعل هذا القحط الذي أصاب مكة ناتج عن قطع الميرة عنها بسبب سوء العلاقات مع العبيديين، والدليل على ذلك أن أهلها استخدموا النقد النيسابوري بدلاً من النقود العبيدية.

(١) عطية القوصي. المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٢) ابن المجاور . صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (المسمى تاريخ المستبصر) ؛ تحقيق أوسكار لو ففرين - ط ٢ - بيروت : دار التنوير ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ١٤ .

(٣) ناصر خسرو . المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

كذلك استخدم أهل مكة الدينار الذهبي المغربي وكان ذلك في سنة ٤٤٢هـ وكان استخدامه زمن قحط شديد أصاب أرضها حتى بيعت فيه عشرون وزنة من القمح بدينار مغربي ذهبي^(١).

واستمر تعامل أهل مكة بالدينار المغربي حتى سنة ٤٤٧هـ، حيث أصاب مكة في هذه السنة غلاء شديد بسبب قحط أصاب أرض مصر تعذر معه حمل الميرة منها إلى مكة فبلغ سعر الخبز في أسواقها عشرة أرطال بدينار مغربي^(٢).

وفي العهد العبيدي أيضاً استخدمت في مكة الدنانير المعزية نسبة إلى الحاكم العبيدي المعز لدين الله ، وكذلك شاع تداول عملة عبيدية عبارة عن دنانير تعرف بالغرة ، كما تم التداول بشكل محدود بدينار يعرف بالدينار القراضة^(٣).

ونظراً للارتباط التجاري والسياسي الوثيق بين مكة واليمن، فلا نستبعد انتشار العملات المتداولة في اليمن بمكة ومنها على سبيل المثال الدينار الذهبي المصري الذي ظل يتداول فترة من الزمن في بلاد اليمن وكذلك الدينار الملكي المنسوب لأحمد الصليحي، فضلاً عن العملة العباسية المتمثلة بالدرهم الفضي^(٤).

ونجد أن الدينار الذهبي المصري والدينار الملكي استمر التعامل بهما في مكة حتى العصر الأيوبي، ويدلنا على ذلك ما حدث سنة ٦٢٧هـ، حيث بلغ سعر الشعير

(١) ناصر خسرو . المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٢) الجزيري . المصدر السابق، ج ١ ، ص ٣٤٤ .

(٣) عطية القوصي . المرجع السابق ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ . أما القراضة فقال ابن خلكان : المثلوم: عبارة عن دينار تقطع منه قطعة صغيرة وقد جرت عادتهم في العراق وتلك البلاد أن يفعلوا مثل هذا؛ لأنهم يتعاملون بالقطع الصغار. ويسمونهم القراضة . (وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان: تحقيق إحسان عباس ، ج ٤ - ط ١ - بيروت : دار صادر ، ١٩٧١م ، ص ١٥٠ .

(٤) محمد علي عسيري . الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي - ط ١ - جدة : دار المدني، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

أربعين صاعاً بدينار مصري والحنطة عشرين صاعاً، والسمن منوين بدينار مكي^(١). وشاع خلال العصر الأيوبي أيضاً استعمال بعض العملات التي انتشر استخدامها في مصر ومنها العملات النحاسية المعروفة بالدوانيق ومفردها دانق وهو سدس الدرهم ، وكذلك شاع استعمال الفلاس والقيراط^(٢).

وراج استعمال الدينار والدرهم الصلاحيين في مكة وهما منسوبان إلى السلطان الأيوبي صلاح الدين وكانا ضربا بمكة وكان الذي سكهما أخوه القائد طغتكين وذلك سنة ٥٨١هـ^(٣).

وتداول أهل الحجاز كذلك في العصر الأيوبي الدينار المؤمني، حيث ذكر ابن جبير^(٤) أنه في أسواق مكة بلغ سعر الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمني وهي الويبة^(٥) من كيل مصر وجهاتها.

ولم يقتصر تجار مكة على استعمال النقود فقط، بل كان تداول الصكوك بينهم وبين تجار مصر أمراً شائعاً ومتعارفاً عليه، وذلك لتسهيل المعاملات التجارية الضخمة، وخوفاً من حمل كمية كبيرة من النقود وتعرضها للضياع^(٦) وهذه الصكوك المتداولة بين التجار أقرب ما يقال عنها أنها شبيهة بما يعرف حالياً (بالشيكات البنكية).

(١) ابن فهد. المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧.

(٢) عطية القوصي. المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٣) ابن فضل الطبري. إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، ج ١؛ تحقيق محسن محمد سليم ٠ ط ١ - القاهرة: دار الكتاب الجامعي، د ت، ص ٢٩.

(٤) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٨٧.

(٥) الويبة: مكيال مصري، ومقداره عشرة أمان، والمن: يساوي رطلين كل رطل ١٣٠ درهماً، وهو يعادل ١٦٨، ١٢ كغم قمح. ضيف الله الزهراني. أسعار المواد الغذائية، ص ١٠٧.

(٦) صبحي عبد المنعم محمد. المرجع السابق، ص ٣٠١.

أما عن أسعار السلع، فهي متغيرة وغير ثابتة؛ فترتفع في الكوارث والأزمات وسنين القحط والجذب، ثم ترخص إذا حل الرخاء الاقتصادي في مكة وتوافرت في أسواقها البضائع والسلع.

أما عن المقايضة فكانت أمراً شائعاً في أسواق مكة وكان التجار السريون (*) القادمون من بلاد اليمن والسراة في الغالب لا يبيعون بضائعهم التي يجلبونها معهم بالدرهم والدنانير وإنما يقايضون بها بالخرق والعباءات والملاحف والأقنعة^(١) وغيرها من الملابس الأخرى.

أما عن المكاييل فقد ذكر المقدسي^(٢) أن أهل الحجاز يستعملون في تجارتهم مكاييل كثيرة من أشهرها الصاع والمد والمكوك ثم يذكر أن المد ربع الصاع وأن الصاع ثلث المكوك والمكوك يزن خمسة أرطال وثلثي رطل .

واشتهر عند التجار المكيين الكيل بالصاع، حيث يكيلون به الحنطة والشعير^(٣). أما تجار المدينة فكانوا يكيلون بالمد^(٤).

واستخدم التجار المكيون في العصر الأيوبي نوعاً آخر من المكاييل وهو الفرارة^(٥) كما كانوا يستخدمون كذلك الكيل المغربي والكيل المصري^(٦).

(*) وسيأتي الحديث عنهم في الجزء الخاص بفئات التجار.

(١) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٩٦.

(٢) المقدسي. المصدر السابق، ص ٩٧.

(٣) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٨٧.

(٤) القلقشندي. المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٠٢.

(٥) القلقشندي. المصدر السابق ج ٤، ص ٢٧٦. والفرارة: مكيال معروف عند أهل الشام . يعادل

٢٠٤ كغم أو حوالي ٢٦٥ لتراً . ضيف الله الزهراني . أسعار المواد الغذائية ، ص ١٠٥ .

(٦) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٧٨.

وعن الأوزان فقد عرفوا الأوقية، وكذلك النش وهو يساوي نصف الأوقية والأوقية تساوي ٢٤ درهماً، كما عرف أيضاً المِثقال وهو يساوي درهماً وثلاثة أرباع الدرهم^(١). ومن الأوزان التي استخدمها التجار في مكة المن^(٢) وقد شاع استخدامه في العصر الأيوبي وكان يوزن به البضائع وهو يزيد عن المِثتين وستين درهماً^(٣). واستخدم في العصر الأيوبي أيضاً الرطل وهو يصل إلى مِثتي درهم^(٤) وكذلك استخدم الإردب^(٥) وكان يساوي ثمان مئة قفيز بالكيل الإشبيلي المغربي^(٥) بما يعادل ٢٤ صاعاً حجازياً^(٦).

واختلف التجار بين المدن الحجازية في وحدات القياس وأصبح لكل مدينة في الحجاز وحدتهم الخاصة بهم، حيث اشتهر عند التجار المكيين استعمال الذراع المصري لقياس الأقمشة، كما شاع عند تجار المدينة استعمال الذراع الشامي^(٧).

فئات التجار :

لقد أصبحت مكة بحكم مكانتها الدينية والاقتصادية منطقة جذب للكثير من الناس باختلاف أطياهم ومشاريهم فكانوا يفدون إليها لأداء فريضة الحج والعمرة وفي الوقت نفسه كانوا يستفيدون من أسواقها وتجارها حتى أصبحت بذلك سوقاً كبيراً يجتمع فيه الكثير من مزاولي مهنة التجارة من أنحاء شتى. وكان التجار الوافدون يزاولون مهنتهم مع التجار المحليين من أهل مكة الذين

(١) أحمد الشريف. المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٢) المقدسي. المصدر السابق، ص ٩٣.

(٣) القلقشندي. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٧٦.

(٤) المقرئزي. المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٥) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٤٧.

(٦) صبحي عبد المنعم محمد. المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(٧) القلقشندي. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٧٦، ٣٠٢.

يستقبلونهم بكل جديد تنتجه أرضهم أو ما يجلبونه من سلع وتجارات، ويشتررون منهم الجديد من بضائع بلادهم ، وبهذا تكون الأسواق المكية قد غصت بالكثير من التجار المحليين والوافدين الذين يعملون جنباً إلى جنب حيث يكمل أحدهما الآخر وتعم الفائدة الجميع.

التجار المحليون :

تزرخ مكة بالكثير من التجار المحليين الذين ساهموا بدورهم في إنماء الحياة الاقتصادية لبلادهم وسعوا جاهدين إلى ذلك وأقاموا فيها الأسواق والمتاجر وحرصوا على استجلاب البضائع واستيراد السلع التي يحتاجها السكان . وكان هؤلاء التجار يمارسون التجارة مهنة أساسية والبعض الآخر يمارسها مهنة مكملة بجانب ما يمارسه من مهن أخرى^(١).

وعلى أي حال فقد كانت مهنة التجارة في كلا الحالتين تدر على ممارسيها مردوداً كبيراً من المال.

وكان التجار المحليون يمارسون التجارة ويتصلون بغيرهم من التجار داخل إقليم الحجاز منذ القدم، فتجد أناساً من تجار مكة يحضرون إلى المدينة ويبيعون في أسواقها السلع التي يجلبونها من بلدتهم أو من القرى المحيطة بها وتجد كذلك تجاراً من المدينة ينقلون بضائعهم وما تنتجه أرضهم من سلع إلى مكة ويشاركونهم في ذلك الكثير من تجار القرى والأرياف المنتشرة في أرض الحجاز.

وقد أدت الطرق التجارية التي تربط مدن الحجاز بقراه دوراً كبيراً في تسهيل عملية انتقال هؤلاء التجار وسرعة وصولهم إلى الأسواق في المدن والقرى الحجازية .

(١) أحمد الشريف . المرجع السابق ، ص ٣٩١.

وكان تجار البادية من الإقليم نفسه على اتصال دائم بالأسواق المكية، حيث يجلبون إليها منتجات البادية من إبل وغنم وخيل وصوف ووبر وسمن^(١).

وكانت الطائف تنتج الكثير من السلع الزراعية كما ذكرنا ذلك سابقاً وكان التجار فيها يشترون تلك السلع وينقلونها إلى مكة والقرى المحيطة بها^(٢)، وكذلك كان تجار جدة ينقلون السلع التي تصلهم عبر البحر من بلاد الهند واليمن والحبشة وغيرها إلى الأسواق المكية^(٣).

وهناك من التجار المحليين من احترف تجارة التوابل فصار بهذا وكيلاً لتجار الهند والشرق الأقصى في مكة فيُصرف لهم بضائعهم في أسواقها، ومنهم من صار وكيلاً لتجار البخور والعطور وغيرها من سلع الشرق.

كذلك احترف بعض التجار بجانب البيع والشراء مهنة الصرافة وتبديل العملات^(٤). وهناك من العلماء المحليين من امتن التجارة بجانب طلب العلم فانتشروا في الأسواق المكية يبيعون ويشترون وأصبحت التجارة بذلك مصدر رزق لهم^(٥).

ويذكر ابن جبير^(٦) أن بعض الأشراف في مكة وجدة كانوا يشتغلون بالتجارة ويمتهنون المهن المتنوعة؛ فمنهم من اشتغل في كراء الجمال ومنهم من اشتغل في بيع

(١) السمهودي . وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، ج ٢؛ تحقيق محمد محيي الدين - ط ٤ - بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ٥٤٠.

(٢) المقدسي. المصدر السابق، ص ٧٩.

(٣) الفاكهي. المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦.

(٤) السمهودي. المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٤٣.

(٥) ابن شاهين . تاريخ أسماء الثقات : تحقيق صبحي السامرائي - ط ١ - الكويت : الدار

السلفية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤، ص ٦٦.

(٦) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٤٦.

اللبن والماء والتمر والحطب وهناك من النساء الشريفات من اشتغلن بالتجارة أيضاً وقمن ببعض الأشغال.

وكانت فئة من التجار المحليين تلقى الرعاية اللازمة والدعم الكبير من الأمراء والولاة، وكان المجتمع المكي يحترم هؤلاء التجار ويرفع من قدرهم وذلك لارتباطهم الوثيق بحياة الناس المعيشية وما يقدمونه من خدمات جليلة أدت إلى توفير سبل الراحة والاقتصاديات اللازمة للأهالي^(١).

التجار الوافدون:

تعد الأسواق المكية كما ذكر سابقاً نقطة جذب للكثير من الناس الذين يفدون إليها من كل مكان في العالم وخصوصاً التجار.

وعندما زارها ابن جبير أخذته الدهشة من حجم تجارتها والعدد الهائل من التجار الذين يفدون إليها من الهند والحبشة والعراق واليمن وخراسان والمغرب^(٢). وقد جاء في وثائق الجنيزا(*) ذكر اشتراك التجار وأرباب الحرف والعلماء في القوافل المتوجهة إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج وتوضح لنا هذه الوثائق بصورة مفصلة نشاط بعض التجار الوافدين إلى أرض الحجاز عموماً حيث أن منهم من يتاجر لنفسه ومنهم من يقدم بتجارة لغيره والبعض الآخر منهم يكون وكيلاً لتاجر أو عدد من التجار^(٣).

(١) سعاد حسن. المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٢) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٨٤.

(*) وثائق خطية ثم العثور عليها في معبد الفسطاط اليهودي في مصر ويرجع تاريخها إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع للهجرة وبلغ مجموعها أكثر من ربع مليون ورقة كتب معظمها باللغة العربية بحروف عبرية وتحتوي على وثائق قانونية وعقود بيع وعقود زواج وطلاق واتفاقات شركات وغيرها وقد تم تهريب الكثير منها خارج مصر إلى مكتبات في الغرب وأمريكا ونشر بعضها وبعضها لم ينشر. على السيد محمود. المرجع السابق، ص ٥٩.

(٣) علي السيد محمود. المرجع السابق، ص ٥٩.

وهناك من التجار من يأتي إلى مكة بشكل جماعي فيشكلون بذلك ما يشبه الهيئات والتكتلات التجارية وغالباً ما يطلق عليهم لقب أو مسمى يشتهرون به ويتميزون بهذا عن بقية الفئات التجارية الأخرى.

وكان من أهم تلك الجماعات التجارية التي كان لها أثر كبير في انتعاش التجارة المكية الجماعة المعروفة بجماعة التجار السرويين وتجار الراذانية وتجار الكارم وتجار المغاربة، وبعض الجماعات التجارية الأخرى التي كان لها تأثير أقل من هذه الجماعات.

التجار السرويون (*) :

وهم من أكبر فئات التجار الذين يفدون إلى مكة من أرض السراة بتجارات عظيمة وقد تكرر مجيئهم إليها مرات كثيرة وتحدثت المصادر عنهم بإسهاب .

ويعد الرحالة ابن جبير من الذين عايشوا مجيء هؤلاء التجار إلى مكة واختلط بهم في أثناء مقامه فيها وكان يتحدث عنهم ويصفهم ويذكر تجارتهم وما يحملون من سلع من بلادهم ويطلق عليهم مسمى السرو ويذكر أن من لطف الله عز وجل بأهل مكة أن أوفد إليهم هؤلاء القوم المحملين بالتجارات الكثيرة^(١).

وكان التجار السرويون يستعدون للسفر إلى مكة قبل حلول الموسم بعشرة أيام ويجمعون بين النية بالعمرة وبين المتاجرة ويحملون معهم من بلادهم أنواع الأطعمة

(*) فئة من القبائل وبطون الأزدي ليس لهم سلطان يحكمهم ومعظمهم من بجيلة وزهران وغامد ويسكنون جبال السراة ومنه استمدوا الاسم . تتميز أرضهم بوفرة الأعشاب والمزروعات والفلات ، وكانوا يفدون إلى مكة للتجارة، وازداد مجيئهم إليها أواخر القرن السادس الهجري، وامتازوا بالقوة والشجاعة والبأس حتى أن الأعراب تهاب مقدمهم فلا يتعرضون لهم وكانوا يلبسون الأزر المتسخة والجلود ولا يهتمون بالمظهر. ابن جبير. المصدر السابق، ص ٩٧؛ ابن بطوطة. المصدر السابق، ص ١٨٠ - ١٨١؛ عبد الله أبو داهش . أهل السراة في القرون الإسلامية الوسيطة ٠ - ط ١ - أ بها : مطابع مازن، ١٩٩٧م، ص ٤٦ - ٤٩.

(١) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٩٥.

من الحنطة وسائر الحبوب ويجلبون معهم السمن والعسل والزبيب واللوز وجميع أصناف الفاكهة ثم يصلون الحجاز ويدخلون مكة بأعداد كبيرة تصل إلى آلاف الرجال والجمال فيغدقون على أهلها ومن كان فيها من صنوف الأطعمة وبمقدمهم ترخص الأسعار ويشترى الناس منهم ما يكفيهم حتى يفدوا إليهم مرة أخرى^(١).

وقد يفد هؤلاء التجار إلى مكة مرة أخرى بنفس العام قاصدين العمرة وكانوا يأتونها أول رجب فإذا دخلوا مكة ملؤها خبزاً وحنطة وشعيراً وسمناً وسويقاً ويحضرون معهم من بلادهم العسل والذرة والدخن والزبيب واللوز حتى أن أهل مكة كانوا يقولون عنهم «حاج العراق أبونا نكسب منهم الذهب والسرور أمنا نكسب منهم القوت»^(٢).

وكان هؤلاء التجار لا يبيعون بضائعهم بالدنانير والدراهم إنما كان جل تعاملهم بالمقايضة فيأخذون ثمنها أقمشة وثياباً وعباءات وشمائل^(٣).

ونستنتج من هذا أن تجارة السرويين لم تكن قائمة على الملابس ولم تكن بضائعهم تحوي الأقمشة والثياب إذ لو كان ذلك لما احتاجوا أن يقايضوا بها والمقايضة هنا دليل الاحتياج الشديد إليها.

وهناك دليل يؤكد لنا احتياج السرويين إلى المنسوجات والألبسة، حيث جاء في وصفهم أنهم قومٌ يلبسون الجلود الخشنة^(٤) وهذا يؤكد لنا حاجتهم للألبسة الصوفية والقطنية والأخرى غير الجلود.

ولا يقتصر مجيء التجار السرويين على مكة، بل كانوا يفدون إلى المدينة أيضاً محملين بالبضائع والسلع المتنوعة.

(١) ابن جبير . المصدر السابق، ص ٩٥.

(٢) ابن الجاور . المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) ابن جبير . المصدر السابق، ص ٩٦.

(٤) ابن بطوطة . المصدر السابق، ص ١٨١.

ويصادف مجيء هؤلاء التجار حاجة أهالي مكة الشديدة لما يحملون معهم من ميرة وطعام خصوصاً إذا كان الناس يعانون من جذب أو قلة في الطعام، فقد ذكر ابن جبير^(١) أن هؤلاء التجار قد حضروا إلى مكة وكانوا محملين بالميرة فأستبشر الناس بمكة لمقدمهم وكانوا في ضيق من العيش لتأخر نزول المطر فابتاعوا منهم وسدوا حاجتهم. ولا نستبعد وفود هؤلاء التجار على مدن وقرى حجازية أخرى بفرض التجارة وربما كان ذلك في أثناء تنقلهم بين مكة والمدينة.

التجار الراذنية:

وهم فئة من التجار اليهود^(٢) القدماء الذين احترفوا استيراد تجارة الشرق عبر البحر الأحمر^(٣) وكانوا يتنقلون بين الشرق والغرب ببضائعهم وتجارتهم الكثيرة براً وبحراً^(٤) واستطاعوا من خلال تجوالهم هذا أن يسيطروا على تجارة الشرق وتجارة البحر الأحمر والاستفادة كذلك من موانئه في مصر والحجاز لتصريف بضائعهم فيها^(٥). وكان هؤلاء التجار يتقنون الحديث بعدة لغات كالعربية والفارسية والروسية والإفريقية والأندلسية والصقلية^(٦) ويدل على هذا كثرة تنقلاتهم بين هذه البلدان واختلاطهم بشعوبها حتى أتقنوا الحديث بلغاتهم. أما عن الطريق التجاري الذي كان يسلكه هؤلاء التجار فهو البحر من المشرق

(١) ابن جبير. المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٢) ابن خرداذبة. المسالك والممالك - ٠ ليدن، ١٩٨٩م، ص ١٥٣.

(٣) عطية القوسي. المرجع السابق، ص ٣٢.

(٤) ابن خرداذبة. المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٥) أحمد الزيلعي. مكة وعلاقاتها الخارجية - ٠ ط١، الرياض : عمادة شؤون المكتبات، جامعة

الإمام، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ١٧٩.

(٦) ابن خرداذبة. المصدر السابق، ص ١٥٣.

ثم يعبرون البحر الأحمر، حيث ينزلون إلى البر المصري وينتقلون عبر الفرما إلى الإسكندرية ثم إلى أوروبا^(١) ويجلبون معهم من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج والفراء والسمور والسيوف^(٢).

وفي أثناء مرورهم بالبحر الأحمر كانوا ينزلون إلى موانئ الحجاز في الجار وجدة^(*) ومنها يسيرون إلى الهند والصين فيجلبون معهم من تلك البلدان المسك والعود والكافور والدارصيني إلى غير ذلك من بضاعة تلك البلدان ثم يعودون أدراجهم من جديد عبر البحر الأحمر ويفرغون بعض سلعهم في موانئ الحجاز ومنها يكملون مسيرهم إلى مصر^(٣).

نجار الكارم^(**) :

أدت هذه الفئة التجارية دوراً كبيراً في تجارة الشرق بوجه عام وتخصصت بتجارة التوابل على وجه الخصوص^(٤) وطافت أرجاء العالم الإسلامي وتخصصت

(١) أحمد الزيلعي. المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٢) ابن خرداذبة. المصدر السابق، ص ١٥٣.

(*) ومن المعروف أن هؤلاء التجار - بما أنهم من اليهود - يقتصر نزولهم في موانئ الحجاز ولا يدخلون الأراضي المقدسة في مكة والمدينة؛ لأنها محرمة على غير المسلمين وربما كان لهم بعض الوكلاء الذين يصرفون لهم تجارتهم داخل أراضي الحجاز وخصوصاً في المدينتين المقدستين.

(٣) ابن خرداذبة. المصدر السابق، ص ١٥٤.

(**) فئة من التجار اشتهرت بهذا الاسم وهو مأخوذ عن الكانم وهي منطقة من السودان الغربي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، ويقال إنه مأخوذ من اللفظة الأمهرية kua rima وتعني الحبهان (الهيل) وهي سلعة من التوابل اشتهرت بها تلك الفئة فأصبحت تطلق عليهم وذكر جواتياين أن هؤلاء التجار أصلهم من الهند. السيد عبدالعزيز سالم. البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي - الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٢م، ص ٢٠؛ د. جواتياين. دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية : تعريب عطية القوصي - ط ١ - الكويت : وكالة المطبوعات، ١٩٨٠، ص ٢٦٠، ٢٨٩.

(٤) السيد عبدالعزيز سالم. المرجع السابق، ص ٢١.

هذه الفئة بالتجارة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي حتى وصلت تجارتها أرض الصين والهند وأعماق أفريقيا وامتدت حتى بلاد التكرور^(١).

وحتى سنة ٥٤٥هـ لم تتشكل الهيئة التجارية للكارم كهيئة مستقلة ولم يحتكروا لوحدهم تجارة التوابل، بل كان يشاركهم تجار آخرون يعملون معهم^(٢).

وأول إشارة لهؤلاء التجار وردت في المصادر العربية ترجع لسنة ٤٥٦هـ^(٣) بوصفهم تجاراً محترفين غير متخصصين ثم بعد ذلك بدأ هؤلاء التجار بالتكتل وتشكيل جماعة مستقلة تعمل لحسابها الخاص^(٤)، ولم يحدث بين هذه الجماعة أي تنافس تجاري يفسد شراكتهم، بل كانوا مترابطين ويحرصون على الوحدة فيما بينهم^(٥) حتى تشكلت جماعتهم وأصبحت من أهم الجماعات التجارية في العالم بما يشبه الشركات التجارية الكبرى في هذا الوقت.

واشتهر تجار الكارم بنقل البضائع الثمينة العالية المستوى والمرتفعة الجودة والقيمة^(٦)، كالزنجبيل والروند والعود الهندي والزعفران وخشب الصندل وكذلك الحرير الخام والأسلحة، ويمثل الفلفل السلعة الرائجة عندهم^(٧).

ومما يدل على أهمية تجارة الكارم وخصوصاً في البحر الأحمر أنهم كثيراً ما كانوا يلقون الدعم والحماية من بعض الدول الكبرى في ذلك الوقت، فقد حرص العبيديون حكام مصر على حماية هؤلاء التجار، حيث أعدوا أسطولاً كبيراً في ميناء

(١) أحمد الزيلعي. المرجع السابق، ص ١٨٣. وبلاد التكرور هي ما يعرف الآن بالسودان الغربي، أو

إفريقيا الغربية، أو السودان النيجيري،

(٢) عطية القوصي. المرجع السابق، ص ٩٨.

(٣) أحمد الزيلعي. المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٤) عطية القوصي. المرجع السابق، ص ٩٧.

(٥) سعاد الحسن المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٦) عطية القوصي. المرجع السابق، ص ٣١.

(٧) السيد عبد العزيز سالم. المرجع السابق، ص ٣١.

عذاب لحماية السفن الكارمية المحملة بالبضائع والقادمة من ميناء سواكن عبر البحر الأحمر من هجمات القراصنة^(١) .

وقد أسهم ميناء جدة إسهاماً كبيراً في خدمة تجار الكارم وكان يعد هذا الميناء من أهم محطاتهم الرئيسية على البحر الأحمر^(٢) .

ويبدو أن وصول المراكب التجارية لهؤلاء التجار ورسوها في ميناء جدة كان في شهر ذي القعدة من كل عام وكان المقصد من ذلك موافاة موسم الحج، حيث يجتمع الناس والتجار في مكة فيتحقق لهم رواج سلعهم والاستفادة أيضاً من السلع التي يجلبها الحجاج معهم إلى مكة فيبيعون ما لديهم من بضائع ويشتررون ما يحتاجونه من بضائع جديدة عند عودتهم^(٣) .

وقد جعل تجار الكارم من الدين الإسلامي أساساً لوحدهم^(٤) وهذا أبلغ رد على من قال أنهم طائفة من التجار اليهود أو أن من بينهم أفراداً من اليهود اللهم إلا من أسلم منهم^(٥) حيث كان هؤلاء التجار يشترطون على من يريد الانضمام إلى شراكتهم أن يعتنق الإسلام^(٦) .

ومما يميز مجموعة التجار الكارم عن غيرها أنهم جعلوا شركتهم التجارية شركة وراثية يتوارثها الأبناء عن الآباء، وكانوا يرسلون أبناءهم إلى أسواق مصر والحجاز والهند واليمن لأخذ الخبرة الكافية وممارسة التجارة على أرض الواقع^(٧) .

(١) القلقشندي . المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٢٤ .

(٢) أحمد الزيلعي . المرجع السابق، ص ١٨٣ .

(٣) علي سليمان . النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى - ط ١ - ١٠١ - القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م . ص ١١١ .

(٤) الفاسي . المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٠ .

(٥) السيد عبد العزيز سالم . المرجع السابق، ص ٣٣ .

(٦) المقرئزي . المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢ .

(٧) سعاد الحسن . المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

وكان لطائفة الكارم منذ العصر العبيدي رئيس يرأسها يسمى "رئيس الكارمية" أو "رئيس التجار" أو "شهندر التجار" وهي رئاسة وراثية أيضاً^(١). أما عن إسهاماتهم العمرانية في مكة فقد قام الكثير منهم بتمويل المشروعات الخيرية في مكة وبناء الكثير من المرافق العامة والمدارس والمساجد والمستشفيات فيها^(٢).

التجار المغاربة :

أشار ابن جبير^(٣) إلى وجودهم في مكة حينما ذكر السلع والبضائع المغربية التي تتوافر في أسواقها.

وكان لسيطرة العبيديين على بلاد الحجاز أعظم الأثر في انتشار شريحة كبيرة من التجار المغاربة في مكة وغيرها من المدن الحجازية وكانوا يأتون إلى مكة من مصر عبر الموانئ الحجازية وأهمها ميناء جدة^(٤).

وانتشر عدد كبير من التجار المغاربة في البحر الأحمر وكانوا يفدون من مدن مغربية كثيرة، كبرقة وطرابلس والقيروان والمهديّة وفاس، وقد شجعهم العبيديون على الهجرة إلى مصر بعدما أسسوا دولتهم فيها وقاموا بالتركيز على نقل التجار من قبيلة كتامة المغربية إلى مصر وذلك للاستفادة من خبرتهم التجارية ثم دفعوا بهم إلى تجارة الهند^(٥).

ونفهم من هذا أن انتشار التجار المغاربة في البحر الأحمر وبلاد الحجاز كان بتشجيع ودعم من العبيديين، مما يدل على أن حكام مصر من العبيديين اتخذوا من التجار المغاربة وكلاء لهم في تجارة الحجاز وبلاد المشرق.

(١) عطية القوصي. المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٢) أحمد الزيلعي. المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٣) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٨٤.

(٤) أحمد الزيلعي. المرجع السابق، ص ١٨٤.

(٥) أحمد الزيلعي. المرجع السابق، ص ١٨٤.

ولا يستبعد البعض أن العبيدين قد استغلوا هؤلاء التجار للترويج لمذهبهم الإسماعيلي^(١) إذ لم يكن الدعم المقدم لهم يأتي من فراغ. ولم يقتصر نشاط هؤلاء المغاربة في الحجاز عامة على التجارة فحسب، بل تعدوا ذلك ومارسوا النشاط الزراعي وساهموا في إقامة البساتين والمزارع^(٢).

تجار آخرون :

كان تجار اليمن ممن يفدون إلى مكة بغرض التجارة وكانوا حلقة وصل تجارية بين مكة والشرق الأقصى، حيث نقلوا الكثير من البضائع والسلع إلى مكة من خلال ميناء عدن^(٣) كما قاموا بدور كبير في نشر الدين الإسلامي بين التجار الهنود والصينيين وتجار جاوة والتجار الأفارقة وأقاموا علاقات تجارية طيبة معهم وقد اقترن ذكرهم في مكة والمدينة وبقية المدن الحجازية الأخرى بحلول موسم ورود تجارة التوابل والعطور من بلاد الهند والشرق الأقصى^(٤).

ويذكر المقرئزي^(٥) أن غياب التجار اليمنيين عن مكة يعني انتشار الغلاء فيها ونقص بعض المتاجر واشتداد الأمر على الأهالي.

ونفهم من هذا مدى تأثر الأسواق المكية في ظل غياب هؤلاء التجار ومدى قيمة ما يحملونه من بضائع وسلع .

ويعد تجار مصر وبلاد الشام من أشهر المترددين على الأسواق المكية وكانوا يسيررون في قوافل ضخمة عابرين الطرق التجارية المؤدية إلى مكة ومحمّلين بما تنتجه أرضهم من خيرات وتجارات^(٦).

(١) ابن الجاور . المصدر السابق، ص ٤٩.

(٢) ابن جبير . المرجع السابق، ص ٨٦.

(٣) الفاسي . المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٨٥.

(٤) سعاد الحسن . المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٥) المقرئزي . المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٦.

(٦) سعاد الحسن . المرجع السابق، ص ٣١٥.

أما تجار الحبشة فكان لهم حضور مميز في أسواق مكة، حيث تكثر السلع القادمة إليها من بلادهم^(١)، وكان الاتصال التجاري بين أرض الحجاز والحبشة ضارباً جذوره في القدم^(٢).

واتصل التجار الهنود كذلك بأسواق مكة اتصالاً وثيقاً وكانوا يقدمون من بلادهم عبر ميناء عدن ثم ينزلون بميناء عيذاب ومنه إلى ميناء جدة ثم ينطلقون إلى أسواق مكة بالبضائع التي جلبوها من بلادهم^(٣).

وكان بعض هؤلاء التجار يقيمون في جدة بصورة شبه دائمة ومنهم من يستوطن بها للأبد، وكانوا يمتنون مهنة الوكالة بحيث يصبحون وكلاء لغيرهم من التجار الهنود الآخرين^(٤) وبهذا يشكلون همزة وصل بين تجارة الهند وبلاد الحجاز.

أبرز العوامل التي ساعدت على تنشيط حركة التجارة في الحجاز:

هناك عوامل أساسية كثيرة كان لها الدور الأكبر في نشاط الحركة التجارية في مكة، فالمتتبع للموقع الجغرافي الذي تميزت به تلك البلدة المقدسة سيدرك مدى أهميته وتأثيره على حركة التجارة، حيث تقع بين سلسلة جبلية تتخللها طرق تجارية تصل الشمال بالجنوب مما شجع على نشوء الأسواق المهمة حولها كسوق عكاظ ومجنة وذى المجاز وحباشة^(٥).

وأهم من ذلك كله ما تمتعت به مكة من مكانة دينية عند العرب والمسلمين وذلك لوجود بيت الله الحرام فيها منذ القدم.

(١) ابن جبير. المرجع السابق، ص ٨٤.

(٢) أبو الفرج الأصبهاني. المصدر السابق، ج ٨، ص ٥٣.

(٣) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٤١.

(٤) علي السيد محمود. المرجع السابق، ص ٦٠.

(٥) الفاسي. عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى، ق ٢٦٥ أ - ب.

وسوف نتناول بشيء من التفصيل عاملين مهمين ساعدا على نهوض حركة التجارة في مكة وكان لهما الأثر الكبير في نشاطها وهذان العاملان هما: الحج وحراسة القوافل وخدمة الطرق .

الحج :

يعد الحج من أهم العوامل الدينية التي ساعدت على إنعاش الحركة التجارية في مكة على وجه الخصوص ، وهو فرض إلهي قديم كان العرب يعرفونه ويمارسونه وكانوا يقدمون إلى مكة من كل مكان في الجزيرة العربية وخارجها مشاة وركبانا رجالاً ونساءً ليقوموا بتأدية نسكهم ويوفوا ما عليهم من نذور، وكانوا يعظمون مكة ويدركون حرمتها وقديسيتها فلا تجدهم يتعدون على تلك القدسية بل يتسابقون إلى خدمة بيت الله الحرام ويرفعون من مكانته في قلوبهم قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (١).

وكانت مكة تعد مركز عبادة وتجارة ولم يكن لها سلطة قهرية على من جاورها من قبائل كما كان سائداً في دولتي فارس والروم وإنما يفد الناس إليها وهم مطمئنون النفس مرتاحو البال (٢).

وارتبط الحج بالحياة الاقتصادية والاجتماعية عند العرب منذ القديم فكانوا يحضرون إلى مكة للحج ويستفيدون من الأسواق التي تقام في ذلك الموسم

(١) سورة الحج، الآيات ٢٧ - ٣٠.

(٢) أحمد الشريف. المرجع السابق، ص ١٦٥.

فيجتمعون فيه ويتعارفون ويتبادلون المصالح والمنافع من بيع وشراء وإبرام للعقود والصفقات والمرايحات، وعقد المجالس للمفاخرات^(١).

ويعد موسم الحج حافزاً على زيادة النشاط الاقتصادي لأهل مكة، فهم يستقبلون الأمم القادمة إليهم من كل مكان ويستفيدون مما يجلب معهم من بلادهم، كما كانوا يفرضون عليهم أن يبتاعوا من تجار مكة الأثواب والأطعمة وكل ما يلزمهم وقت مكوثهم فيها وكان العرب يقومون بتنظيم السير إلى مكة والاستعداد للحج من أول بداية شهر ذي القعدة، وكانوا يحملون معهم ما يلزم من متاع والبعض يفد إلى مكة بالتجارات الكبيرة لتصرفها في أسواقها في ذلك الموسم^(٢) كما كانوا يبتاعون السلع الجديدة التي يحضرها تجار آخرون من بلاد أخرى^(٣).

وبهذا يصبح موسم الحج موسم توافد التجار من شتى البقاع وموسم تكديس السلع والبضائع ورواجها، وموسم اللقاء التجاري بين أهل مكة وتجار البلاد الأخرى؛ فتصبح مكة بذلك سوقاً عظيمة يتوافر فيها من التجارات ما لا يتوافر في غيرها من البقاع^(٤). ومن أكبر الأسواق التي تقام في موسم الحج سوق منى الذي يمتد لفترة ثلاثة أيام ويبيع فيه من سائر الأطعمة والسلع المطلوبة من أنحاء المعمورة^(٥) وكذلك سوق المسجد الحرام الذي يحيط به ويزدحم بالمتاجر والدروب^(٦).

(١) محمد حسن العمادي . التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى القرن ٤ هـ -

إريد : مؤسسة حمادة، ١٩٩٧م ، ص ٦١ .

(٢) محمد مصطفى النجار: أحمد مجاهد مصباح . العرب وظهور الإسلام - ط ١ - القاهرة :

مكتبة الخانجي، ١٩٦٩م، ص ١٢١ .

(٣) عطية القوصي . المرجع السابق، ص ٦٧ .

(٤) ابن جبير . المصدر السابق، ص ٤٧ .

(٥) المقدسي . المصدر السابق، ص ١٣٥ .

(٦) ناصر خسرو . المصدر السابق، ص ١٢٧ .

وكانت أسواق مكة مزدهرة طوال العام؛ ذلك أنها لا تخلو من الناس والمجاورين والمعتمرين وطلاب العلم هذا بجانب موقعها الجغرافي المميز، حيث تحيط بها القرى والأرياف المتناثرة حولها والقريبة منها والمكتظة بالسكان^(١).

غير أن سوق مكة يشهد رواجاً أكبر في موسم الحج، فهو الموسم الأعظم الذي يجتمع فيه الناس وهو البيئة الأمثل لإقامة المتاجر^(٢).

أما الموسم الآخر فيوافق أول رجب^(٣) ولعله يصادف العمرة الرجبية التي يحتفل بها أهل مكة^(٤) ويفد إليها التجار من كل مكان وخصوصاً التجار السريون الذين يحرصون على القدوم إلى مكة؛ لأداء تلك العمرة ويحملون معهم الأمتعة والأطعمة لبيعها في أسواق مكة^(٥).

وفي هذين الموسمين تغص مكة بالآلاف من الحجاج والمعتمرين والتجار وتتفق فيها السلع الكثيرة والمتنوعة^(٦).

وهي بلا شك مهية لاستقبال هذا العدد الضخم من الناس كما أن أسواقها ومتاجرها قادرة على استيعاب ما يجلب إليها من بضائع وسلع^(٧).

وكانت القوافل السلطانية وجماهير الركبان تخرج من مصر والشام والعراق واليمن وغيرها من البلدان^(٨) ويصاحبها التجار والمنتفعون من كافة الفئات والأعمار، وكانت هذه

(١) أحمد الزيلعي. المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٢) الإدريسي. المصدر السابق، ج ١، ص ١٤١.

(٣) الإدريسي. المصدر السابق، ج ١، ص ١٤١.

(٤) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٥٩.

(٥) ابن الجاور. المصدر السابق، ص ٢٣.

(٦) الإدريسي. المصدر السابق، ج ١، ص ١٤١.

(٧) الظاهري. زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك؛ تحقيق بوليس راويس - ٢٠ - ط ٢ -

القاهرة: دار العرب، ١٩٨٨، ص ١٢.

(٨) السيوطي. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،

ج ٢ - ١٠ ط ٢ - القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣١٠.

القوافل تنظم تنظيمًا دقيقاً ويجعل لها أمير يسمى "بأمر الركب" أو "أمير الحج"^(١). وما أن تصل هذه القوافل إلى بلاد الحجاز حتى تنتعش التجارة فيها وتزدهر الأسواق المنتشرة في المحطات على الطرق المؤدية إليها، ويكون الازدهار التجاري في أعظم صورته في الطريق، حيث يزدهر صرف العملة وتبديلها والاستعداد بالتزود بالمؤن اللازمة قبل الوفود إلى مكة أو بعد الخروج منها^(٢).

وخير دليل على أهمية الحج وارتباط النشاط التجاري به في مكة ما ورد في وثائق الجنييزة من أخبار عن قوافل الحج الوافدة إليها والمغادرة منها والإشارات إلى ما تحمله من بضائع وسلع ومتاجر الشرق والغرب، وكذلك ما يرد فيها من نصائح بعض التجار لشركائهم ووكلائهم بعدم التسرع في عملية بيع وشراء البضائع حتى يرجع الموسم في مكة^(٣).

وكان للحج دور كبير في ازدهار تجارة الموانئ الحجازية خصوصاً ميناءي الجار وجدة، حيث يشهدان حركة تجارية من قبل الحجاج الذين ينزلون بهما محملين بالتجارات والبضائع العظيمة فيقيمون هناك ويسهمون في تنشيط الأسواق وإنعاشها حتى يقترب موسم الحج فيغادرون محملين بما كسبوه من تجارة لبيعها في مكة^(٤). ويستفيد أصحاب الهيئات التجارية الكبرى من موسم الحج، فهو بالنسبة لهم يعد أكبر فرصة للترويج لبضائعهم التي يأتون بها من كل مكان عبر البحار كالتجار الراذانية الذين يفدون إلى موانئ الحجاز ويتولى وكلاؤهم في مكة عملية البيع

(١) الجزيري . المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢.

(٢) ابن جبير . المصدر السابق

(٣) حسنين محمد ربيع . وثائق الجنييزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى، الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، كلية الآداب، قسم التاريخ - ٠ الرياض، ص ١٣٥.

(٤) المقدسي. المصدر السابق، ص ٧٩.

والشراء ونقل السلع^(١)، وكذلك التجار الكارم الذين تولوا عملية نقل بضائع الشرق وخصوصاً التوابل إلى موانئ الحجاز والمدن الداخلية.

ويُفد إلى موانئ الحجاز أيضاً تجار الهند والصين، وكان مقدمهم إليها مع اقتراب موسم الحج^(٢). وكذلك تجار الحبشة والتجار المغاربة الذين يأتون إلى جدة عبر ميناء عيذاب^(٣) ثم ينتقلون إلى مكة مع حلول موسم الحج ويسهمون في إنعاش التجارة وإقامة الأسواق الكثيرة والمتنوعة.

حراسة القوافل التجارية وخدمة الطرق :

أدت الطرق التجارية التي تربط مكة بالمدن الحجازية الأخرى والأقاليم الإسلامية دورها الكبير في تنشيط التجارة وازدهارها، كما سهلت عملية نقل البضائع والسلع من وإلى الأسواق المكية.

ومن المعلوم أن تأمين الطرق والاهتمام بها من قبل السلطة التي تفرض سيطرتها على هذه الطرق يسهم إسهاماً كبيراً في ازدهارها وجعلها طرقاً معمورة بالمسافرين والمتقلين.

وكان العرب منذ القدم يهتمون بحراسة القوافل التجارية المتجهة إلى مكة والخارجة منها وخصوصاً إذا ما كانت محملة بالسلع والأشياء الثمينة وكانت الحراسة تُسند للأقوياء من الرجال الذين يحملون الأسلحة لإرهاب اللصوص وقطاع الطريق المتخفين في مجاهل الطرق والمنتشرين في الفياضي والقفار ، كما كانت رئاسة القوافل تعطى لأصحاب النفوذ الموصوفين بالحزم والشدة وحدة الذكاء والمعرفة بمسالك الطريق^(٤).

(١) علي السليمان . المرجع السابق : ص ١٥٩ .

(٢) علي السليمان . المرجع السابق : ص ١٥٩ .

(٣) ابن جبير . المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٤) جواد علي . الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧ - ط ١ - بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٧١م، ص ٣٢٢ .

واشتهرت قريش بالتجارة واقترن اسمها برحلتى الشتاء والصيف، وكانت هذه القبيلة حريصة على حماية تجارتها أشد الحرص حتى أنها استحدثت قوة عسكرية ترافق القافلة التجارية أينما اتجهت؛ لتعطيها الأمن والحماية على طول الطريق، وكانت تعمل على هذا حتى تشعر القبائل المعتدية والمنتشرة على طول الطريق بأنها قادرة على الردع العسكري والرد على أي اعتداء يمكن أن يطال تجارتها، كما كانت تعقد التحالفات والمعاهدات بعدم الاعتداء مع القبائل القابعة على طريق مرور قوافلها، زيادة على ذلك كانت في بعض الأحيان تستأجر المحاربين الأقوياء من الأعراب وتجنّد في قوافلها التجارية بعض رجال القبائل للدفاع عنها وحمايتها^(١).

وفي عصر الدولة الأموية حرص الخلفاء الأمويون على خدمة الطرق المؤدية إلى إقليم الحجاز وخصوصاً الطريق الذي يربط بلاد الشام بمكة، وقاموا بالعمل جدياً على تنفيذ الكثير من المشروعات والمرافق التي تخدم الحجاج والتجار المتجهين إلى مكة ومدن الحجاز الأخرى، كما أنهم اهتموا بقضية إصلاح وترميم ما تلف من مشروعات التنمية ومحطات الاستراحة المنتشرة على طول الطرق التجارية^(٢)، وجعلوا عليها حراسة مشددة، وصرفوا في هذا المجال الأموال الطائلة^(٣).

ولعل قضية الاهتمام بحراسة الطرق راجعة إلى كثرة من يستخدمها من أعداء الدولة أو الخارجين عليها، وحرى بهذه الحراسة المشددة أن تقص أجنحة العابثين أو الخارجين على سلطان الدولة ومن يحاول منهم الاعتداء على قوافلها.

(١) أحمد الشريف . دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) الحربي . المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة : تحقيق حمد الجاسر - ٢٠ - ط ٢٠ -

الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ٦٤٣ - ٦٤٦ .

(٣) الحربي . المصدر السابق ، ص ٦٤٩ .

أما عن خلفاء الدولة العباسية، فقد قاموا بمجهودات جبارة في تأمين الطرق التجارية وتنفيذ مشروعات الإصلاح والإنماء فيها^(١).

وكما اهتم الأمويون بالطريق الذي يربط عاصمتهم بمكة اهتم العباسيون أكثر بالطريق الذي يربط بغداد ببلاد الحجاز مع اهتمامهم بالطرق الأخرى المنتشرة في أقاليم الدولة الإسلامية الأخرى^(٢)، وقاموا بالكثير من الإصلاحات في هذه الطرق وشرعوا في بناء المحطات والاستراحات والبرك المائية والخزانات التي تتجمع فيها مياه الأمطار فيشرب منها المسافرين والعابرون^(٣).

واهتم العباسيون بحفر الآبار على طول الطريق الواصل بين العراق ومكة وبناء الحصون في بعض القرى الواقعة على جنبات ذلك الطريق، كما اهتموا بتنشيط الأسواق المتواجدة في تلك القرى وبنوا حولها المساكن لخدمة التجار والمسافرين، وعملوا على إقامة حاميات فيها للإشراف على خدمتها^(٤).

ومن مظاهر اهتمام العباسين بخدمة الطرق تسابق زوجات الخلفاء على إعمارها وبناء مشروعات الإنماء والإصلاح فيها فالسيدة الخيزران زوج الخليفة المهدي و أم الرشيد قدمت إنجازات لا يمكن تجاهلها على طول الطريق الرابط بين العراق ومكة^(٥).

(١) أحمد الزليعي. المصدر السابق، ص ١١٤.

(٢) غيثان جريس. الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز، مجلة العرب، ج ٧- ٨، س ١٦، المحرم، وصفر ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ص ٤٥١.

(٣) الحربي. المصدر السابق، ص ٦٨٧.

(٤) ابتسام السويلم. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب جامعة الملك سعود - الرياض، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٢م، ص ١٢.

(٥) سيد عبد المجيد بكر. الملامح الجغرافية لدروب الحجيج - ط ١ - جدة : تهامة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م. ص ١٩.

وقدمت السيدة زبيدة خدمات محمودية ومشروعات جبارة على ذلك الطريق وقامت بالإنفاق على إقامة البرك والمصانع وصهاريج المياه الشيء الكثير، كما قامت بجفر الآبار على طول الطريق^(١) ولا غرو إذن أن يقترن مسمى ذلك الطريق باسمها حيث أصبح يطلق عليه درب زبيدة^(٢) تخليداً لتلك السيدة التي خدمته وأسدت الجميل للمسافرين عبره.

وبقدر ما حرص الخلفاء العباسيون على حماية الطرق إلا أنها لم تسلم أحياناً من هجمات الأعراب الطامعين في الأموال ، ومع هذا فقد حاول العباسيون كبح جماح وطمع أولئك الأعراب فاستخدموا معهم سياسة الاحتواء والتقريب وصاروا يدفعون لهم الأموال ليقوموا بدورهم في حماية الطرق وتأمين سير القوافل فيها بدلاً من قطع الطريق عليها ونهبها .

ويدل على ذلك ما كان يدفعه العباسيون للأصيفر الأعرابي زعيم قبيلة المنتفق مقابل توفير الحماية للقوافل التجارية التابعة للدولة العباسية ومقابل تصديه أيضاً لهجمات القرامطة المتكررة على الطريق بين مكة والعراق^(٣).

ولكن الأصيفر طمع في جائزة أكبر من هذه فبدأ يطالب بزيادة الأموال ولكن الدولة العباسية لم تستجب لمطالبه وأطماعه فقام هو وجنوده بمهاجمة القوافل التجارية وقوافل الحجاج وقطع الطريق عليها ونهبها^(٤).

وتدخل أحد الأمراء لحل هذه القضية ويدعى بدر بن حسنويه الكردي، حيث دفع ما قيمته خمسون ألف دينار للأصيفر كي يكف عن مهاجمة الحجاج والتجار

(١) الحربي. المصدر السابق، ص ٦٨٥.

(٢) سيد عبد المجيد بكر. المرجع السابق، ص ١٩.

(٣) ابن فهد. المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٤٢١.

(٤) الجزيري. المصدر السابق، ج ١ ، ص ٥٣٠.

وقطع الطريق^(١) واستمر هذا المال جارياً في حساب الأصفى حتى سنة ٤٢٥هـ^(٢). وهناك حادثة أخرى تؤكد ما ذكرناه وتقويه وهو ما حدث في سنة ٤١٠هـ وسنة ٤١١هـ حين تعطل الحج من العراق بسبب مخاوف الطرق وقطع الأعراب المتكرر لها فلم يحتمل التجار والحجاج ذلك فتوجهوا إلى الأمير يمين الدولة محمد بن سبكتكين يسأله التدخل لحماية القوافل وتأمين الطريق فقام الأمير بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار للأعراب مقابل كفهم عن الاعتداء على الطريق واعتراض قوافل التجار^(٣).

و هذا يدل على أن خدمة الطرق والحرص على حماية القوافل التجارية وقوافل الحج لم تكن حكراً على الخلفاء والدول الكبرى في ذلك الوقت، بل كثيراً ما كان يشاركها في ذلك الأمراء والتجار والعامة من الناس . وكان للسلطين السلاجقة اهتمامهم الكبير أيضاً بخدمة الطرق وإعمارها وإقامة المشروعات فيها ومن ذلك ما قام به الوزير السلجوقي نظام الملك من إحياء لطريق الحاج العراقي بعد ما هُجر لعدة سنوات بسبب هجمات الأعراب المتكررة على القوافل فقام بتعميره وبناء البرك المائية فيه وحذا حذوه في هذا العمل السلطان السلجوقي ملكشاه الذي خدم هو الآخر في هذا الميدان وأقام المشروعات الخيرية في هذا الطريق^(٤) .

(١) ابن تفرى بردي . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٤ - القاهرة : دار الكتب ، ١٢٨٢هـ / ١٩٦٣م ، ص ١٩٦ .

(٢) ابن فهد . المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

(٣) ابن الجوزي . المصدر السابق ، ٨ ، ص ٢٨ .

(٤) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، ج ٥ - ط ٤ - بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ١٤٠ .

ولم يقف اهتمام الخلفاء والأمراء على خدمة الطرق وحماية القوافل، بل تعداه إلى الاهتمام ببلاد الحجاز نفسها وخصوصاً مكة، حيث قاموا بنشر الأمن فيها وخدمة الحجاج والمجاورين وسائر الأهالي وأغدقوا عليهم الهبات والأعطيات، كما قاموا بتمويل المشروعات الإنمائية في المدينة المقدسة.

ومن ذلك ما قام به صاحب اليمن محمد الصليحي سنة ٤٥٥هـ عندما دخل مكة وفعل فيها أفعالاً حسنة واستعمل الجميل مع أهلها وأظهر العدل والإحسان ومنع المفسدين وقام بإلغاء المكوس المفروضة على الحجاج^(١).

وقام أبو النصر إبراهيم بن محمد علي الاسترأبادي سنة ٤٦٦هـ بترميم بعض أجزاء المسجد الحرام وتعمير المسجد الذي أحرمت منه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالتنعيم وأجرى الماء من عرفات إلى مكة وكسا البيت^(٢).

وفي سنة ٥٨٥هـ حجت والدته الخليفة العباسي الناصر لدين الله زمرد خاتون واستعملت الجميل بمكة وأمرت ببعض الإصلاحات فيها^(٣).

وحرص الأيوبيون على نشر الأمن بمكة، حيث قام الأمير الأيوبي سيف الإسلام طغتكين بتثبيت الأمن والقضاء على عبيد الأشراف الذين كانوا مصدر شغب وإخلال بالحالة الأمنية^(٤).

وتجدر الإشارة إلى ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي وذلك حينما أرسل إلى أمير مكة مكث بن عيسى يحثه على توطيد الأمن وتوفير سبل الراحة

(١) ابن فهد . المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٨ .

(٢) الفاسي . العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، ج ٣ : تحقيق فؤاد سيد - ط ٢٠٠٢ - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) ابن فهد . المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

(٤) الفاسي . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج ٢ ، ٣١٤ .

للحجاج والرفق بهم وحمايتهم من اعتداءات الأعراب والعبيد^(١)، وزيادة على ذلك قام بإلغاء المكس الذي كان مقرراً على التجار والحجاج القادمين من مصر عن طريق ميناء عيذاب^(٢)، وبدلاً منه قام بتعويض أمير مكة ألفي دينار وألفي أردب قمح تحمل إليه كل عام، وقيل إنه عوضه بثمانية آلاف أردب قمح وإقطاعات بصعيد مصر وجهة اليمن^(٣).

الخاتمة :

وفي نهاية المطاف - وبعد حمد الله على ما منَّ به علينا من إنجاز لهذا العمل المتواضع - يجدر بنا أن نتوقف وقفات مختصرة على أبرز ما حمل هذا الموضوع بين جنباته من نتائج.

فقد تبين من خلال هذا البحث أهمية مكة باعتبارها مركزاً تجارياً بارزاً ليس على المستوى الإقليمي وحسب، بل تعدى ذلك إلى المستوى العالمي أيضاً، وأدى موقعها الفريد دوراً أساسياً في جعلها واجهة اقتصادية وحضارية يقصدها الكثير من التجار من مختلف أنحاء العالم ، وقبل ذلك كان لمكانتها الدينية في نفوس المسلمين أبلغ الأثر في الحرص على زيارتها ، فأصبحت لا تكاد تخلو من الحجاج والمعتمرين الذين بدورهم قاموا بالإسهام في تنشيط الحياة الاقتصادية والتجارية فيها وجعل أسواقها ومتاجرها عامرة طوال العام بأنواع البضائع والسلع المتنوعة.

(١) ابن جبير. المصدر السابق، ص ٧٤.

(٢) السنجاري . منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم ، ج ١: تحقيق جميل عبد الله المصري - ط ١ - ٠٠ مكة المكرمة: جامعة أم القرى ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٢٥٨.

(٣) ابن فهد. المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣٩.

واتضح من خلال البحث كثرة الأسواق المكية في تلك الحقبة وتنوعها ، فمنها الأسواق المختلطة التي يعرض فيها مختلف البضائع والسلع القادمة من الشرق والغرب كسوق المسجد الحرام وسوق المروة ، ومنها الأسواق المتخصصة التي يجتمع فيها أصحاب التخصص الواحد من التجار والباعة كسوق الحدادين وسوق البزازين والحنطايين .

وقد حتم الوضع الديني لمكة ظهور بعض الأسواق الموسمية التي ارتبطت غالباً بمواسم الحج والعمرة .

وتبين من خلال هذا البحث مدى اختلاف وتنوع العملات النقدية المتداولة في الأسواق المكية وارتبط هذا الاختلاف بالغالب بالأوضاع السياسية، حيث كانت السلطة الغالبة على مكة تفرض تداول النقد الخاص بها بالأسواق وبين الأهالي أو تروج له، فوجدنا مثلاً في أثناء سيطرة العباسيين على مكة ساد التعامل التجاري بالنقود العباسية ونفس الشيء بالنسبة للعباسيين إذا ما نجحوا في فرض سيطرتهم على الأوضاع هناك، ورأينا استمرار هذا الوضع حتى في أثناء امتداد النفوذ الأيوبي على الحجاز .

وقد لمسنا من خلال التعامل التجاري في الأسواق المكية مدى تنوع المكايل والموازين المستخدمة من قبل التجار المكيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين فمن المكايل التي شاع استخدامها الصاع والغرارة والكيل المغربي والمصري ، كما شاع استعمال المُد والرطل والإردب، وربما جاء هذا التنوع نتيجة لتنوع فئات التجار التي ترددت على الأسواق المكية ، حيث كانوا يفضلون المكايل التي كانت شائعة في بلادهم التي جاءوا منها .

وفي الحقبة الزمنية التي تناولها البحث برز عدد من التجار المحليين الذين أسهموا في تنشيط حركة التجارة في الأسواق ، كما برز عدد من فئات التجار كتجار السرو وتجار الكارم وغيرهم من الذين مارسوا التجارة براً وبحراً شرقاً وغرباً وأثروا بذلك تأثيراً كبيراً في دعم الاقتصاد المكي بصفة خاصة والحجازي بصفة عامة .

وأخيراً فقد تطرق البحث إلى أهم العوامل التي ساعدت على تنشيط الحركة التجارية في مكة ورأينا الدور الكبير للحج كعامل مؤثر في دعم الاقتصاد المكي وذلك لما له من مكانة دينية عند العرب والمسلمين كافة، حيث يفد الناس إلى مكة لأداء المناسك ثم يرتادون الأسواق لبيعوا ما جلبوه معهم من بضائع وسلع ويشتررون ما قد يحتاجون إليه عند عودتهم فتتشط بذلك الأسواق المكية ويعم فيها الرخاء والنماء.

أما عن حراسة القوافل وخدمة الطرق، فجاءت لتشكّل عاملاً آخر من عوامل تنشيط الحركة التجارية؛ ذلك أن الأمن وسهولة التنقل عبر الطرق مطلبان ضروريان من أجل إقامة حركة اقتصادية وتجارية فاعلة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- أولاً : المصادر المخطوطة .
- الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م) . تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام -٠ المدينة المنورة : مكتبة عارف حكمت .
- عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى -٠ المدينة المنورة : مكتبة عارف حكمت ، رقم ٩٠٠/١٤٨ .
- ثانياً : المصادر المطبوعة .
- ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) . الكامل في التاريخ -٠ ط٤ -٠ بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
- الإدريسي ، محمد بن محمد بن عبيد الله بن علي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م) . نزهة المشتاق في اختراق الأفاق -٠ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، (د، ت).
- الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت حوالي ٢٥٠هـ/٨٦٣م) . أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار : تحقيق رشدي ملحس -٠ ط٤ -٠ مكة المكرمة : دار الثقافة ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
- ابن بكار، الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) . جمهرة نسب قريش وأخبارها : تحقيق محمود محمد شاكر -٠ القاهرة : مطبعة المدني ، ١٣٨١هـ .
- البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) . المسالك والممالك : تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري -٠ تونس : الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، ١٩٩٢م . معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضع : تحقيق مصطفى السقا -٠ ط٣ -٠ بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

- ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٢٨٢هـ/ ١٩٦٢م .
- ابن جبير ، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٤١٦هـ/ ٢١٧م) . رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) -٠ بيروت : دار بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
- الجزيري ، عبد القادر بن محمد (من أهل ق ١٠هـ/ ١٦م) . الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ؛ تحقيق حمد الجاسر -٠ ط ١ -٠ الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ؛ تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا -٠ ط ١ -٠ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .
- ابن حبان ، محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) . الثقات -٠ ط ١ -٠ حيدرآباد ، الهند : دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .
- الحربي ، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) . المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ؛ تحقيق حمد الجاسر -٠ ط ٢ -٠ الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٧م .
- الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) . معجم البلدان -٠ بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .
- ابن خرداذبة ، عبيد الله بن عبد الله الخراساني (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) . المسالك والممالك -٠ لندن ، ١٨٨٩م .

- خسرو ، ناصر علوي خسرو القبادياني (ت ١٠٨٨هـ/ ١٤٨١م) . سفرنامة "رحلة ناصر خسرو القبادياني" ؛ ترجمة وتقديم أحمد خالد البدلي - ط ١ - ٠ الرياض : عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ابن خلكان ، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) . وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ؛ تحقيق إحسان عباس - ط ١ - ٠ بيروت : دار صادر ، ١٩٧١م .
- ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م) . الأعلام النفيسة ؛ تحقيق خليل المنصور - ط ١ - ٠ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .
- الرشيدى ، الشيخ أحمد (ت ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م) . حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي أمانة الحاج ؛ تحقيق ليلى عبداللطيف أحمد - ط ١ - القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٨٠م .
- الزهرى ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت في أواسط ق ٦هـ/ ١٢م) . كتاب الجغرافية؛ تحقيق محمد حاج صادق - ط ١ - بورسعيد : مكتبة الثقافة الدينية ، (د . ت) .
- السمهودى، علي بن أحمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) . وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - ط ٤ - ٠ بيروت : دار إحياء التراث العربى ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .
- السنجاري ، علي بن تاج الدين بن تقي الدين (ت ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م) . منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم ؛ تحقيق جميل بن عبد الله المصري - ط ١ - ٠ مكة المكرمة : مركز إحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) . حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط ١ - ٠ القاهرة ١٢٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

- ابن شاهين ، أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) . تاريخ أسماء الثقات؛ تحقيق صبحي السامرائي - ٠ ط ١ - الكويت: الدار السلفية ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .
- الظاهري ، خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـم ١٤٦٨م) . زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ؛ تحقيق بولس راويس - ٠ ط ٢ - القاهرة : دار العرب للبستاني ، ١٩٨٨م .
- العجلي ، أحمد بن عبد الله بن صالح (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م) . تاريخ الثقات ؛ تحقيق عبد المعطي قلعجي - ٠ ط ١ - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م .
- الفرناطي ، أبو حامد سليمان بن ربيع (ت ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) . تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ؛ تحقيق إسماعيل العربي - ٠ ط ٢ - بيروت : دار الجيل ؛ المغرب : دار الآفاق الجديدة ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م) . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ؛ تحقيق عمر عبد السلام تدمري - ٠ ط ١ - بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م . العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ؛ تحقيق فؤاد سيد - ٠ ط ٢ - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
- انفاكهي ، محمد بن إسحاق (ت بعد ٢٧٢هـ / ٨٨٥م) . أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ؛ تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش - ٠ ط ١ - مكة المكرمة : مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م .
- أبو الفرج الأصبهاني ، علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) . الأغاني . مصور عن طبعة دار الكتب ٢٨٣هـ/ ١٩٦٣م .
- ابن فضل الطبري ، محمد بن علي المكي (ت ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م) . إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ؛ تحقيق محسن محمد حسن سليم - ٠ ط ١ - القاهرة : دار الكتاب الجامعي ، (د . ت) .

- ابن الفقيه، أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م) . مختصر كتاب البلدان -٠- ليدن، ١٣٠٢هـ .
- ابن فهد ، النجم عمر بن فهد بن محمد المكي (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م) . إتحاف الوري بأخبار أم القرى ؛ تحقيق فاهيم محمد شلتوت -٠- ط ١ -٠- مكة المكرمة : مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .
- قدامة بن جعفر ، قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) . الخراج وصناعة الكتابة " المنزلة الخامسة " ؛ تحقيق طلال جميل الرفاعي -٠- ط ١ -٠- مكة المكرمة : مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) . صبح الأعشى في صناعة الإنشا ؛ شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين -٠- ط ١ -٠- بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- ابن ماجة ، محمد بن يزيد الربيعي القزويني (ت ٢٧٣هـ/٨٨٧م) . السنن ؛ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي -٠- ط ٢ -٠- بيروت : دار الفكر ، (د.ت)
- ابن المجاور ، محمد بن مسعود البغدادي النيسابوري (ت بعد ٦٢٦هـ/١١٢٩م) . صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسمى (تاريخ المستبصر) ؛ تحقيق أوسكار لوفغرين -٠- ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٣٦م .
- المراغي ، أبو بكر بن الحسين بن عمر (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) . تحقيق النصره بتلخيص معالم دار الهجرة ؛ تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي -٠- ط ٢ -٠- المدينة المنورة : المكتبة العلمية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
- المقدسي ، محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم؛ تحقيق محمد مخزوم -٠- بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

- المقريري ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) . السلوك لمعرفة دول الملوك : تحقيق محمد مصطفى زيادة -٠ القاهرة ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م .
- مؤلف مجهول : (عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) . حدود العالم من المشرق إلى المغرب ؛ تحقيق يوسف الهادي -٠ ط ١ -٠ القاهرة : الدار الثقافية للنشر ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .
- الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت بعد ٣٢٤هـ / ٩٤٥م) . صفة جزيرة العرب ؛ تحقيق محمد بن علي الأكوخ الحوالي ؛ إشراف حمد الجاسر -٠ الرياض : دار اليمامة ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .
- الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) . المغازي؛ تحقيق مارسدن جونس -٠ بيروت : عالم الكتب ، (د.ت) .
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) . البلدان ؛ تحقيق محمد أمين ضناوي -٠ ط ١ -٠ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .
- ثالثاً : المراجع العربية والمعرية .
- أحمد إبراهيم الشريف . دور الحجاز في الحياة السياسية في القرنين الأول والثاني للهجرة -٠ بيروت : دار الفكر العربي، (د . ت) . مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول -٠ بيروت : دار الفكر العربي ، (د . ت) .
- أحمد مصطفى السباعي . تاريخ مكة -٠ ط ٧ -٠ مطبوعات نادي مكة الأدبي ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .
- أحمد عمر الزليعي . مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ - ٤٨٧هـ) -٠ ط ١ -٠ الرياض : عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- جميل حرب محمود حسين . الحجاز واليمن في العصر الأيوبي - ط ١ - جدة : دار تهامة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - ط ١ - بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٦م .
- س . د . جوايتاين . دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية : ترجمة عطية القوصي - ط ١ - الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠م .
- السيد عبد العزيز سالم . البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي - الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣م .
- سيد عبد المجيد بكر . الملامح الجغرافية لدروب الحجيج - ط ١ - جدة : دار تهامة ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- صبحي عبد المنعم محمد . العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين - القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، (د . ت) .
- عبد العزيز راشد السندي . مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ط ١ - الرياض ، ١٤٢٧هـ .
- عبد الله أبو داهش . أهل السراة في القرون الإسلامية الوسيطة - ط ١ - أبها : مطابع مازن ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- عطية القوصي . تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الدولة العباسية - القاهرة ، ١٩٧٦م .
- علي حسين السليمان . النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى - ط ١ - القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

- غيثان بن علي بن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطه - ط ١ - ٠ أبها ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- محمد أحمد العقيلي . تاريخ المخلاف السليماني : مراجعة وإشراف حمد الجاسر - ط ٢ - ٠ الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- محمد حسن العمادي . التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى ق ٤هـ - ٠ أريد : مؤسسة حمادة ، ١٩٩٧م .
- محمد علي مسفر عسيري . الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي - ط ١ - ٠ جدة : دار المدني ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- محمد مصطفى النجار وأحمد مجاهد مصباح . العرب وظهور الإسلام - ط ١ - ٠ القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٩م .
- مصطفى عبد الكريم الخطيب . معجم المصطلحات والألقاب التاريخية - ط ١ - ٠ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .
- نعيم زكي . طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب - ط ١ - ٠ القاهرة : المكتبة العربية ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .
- رابعاً : الرسائل العلمية غير المنشورة .
- ابتسام السويلم . الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الرابع الهجري . " رسالة ماجستير " . كلية الآداب ، جامعة الملك سعود - ط ١ - ٠ الرياض ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- سعاد إبراهيم الحسن . النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي (٦٤٨- ٩٢٣هـ) . " رسالة ماجستير " ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- صالح بن أحمد الضويحي . الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز في الفترة من ٤٠٢ - ٥٥٧هـ) ، (رسالة ماجستير) ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

خامساً : الأبحاث والمقالات العلمية .

- علي السيد محمود . جدة إحدى مراكز التجارة . مجلة الدارة ، س٢٩ ، ع٤ ، ١٤٢٤هـ .
- غيثان بن علي بن جريس . الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز . مجلة العرب ، ج٧-٨ ، س١٦ ، المحرم وصفر ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .
- محمد حسنين ربيع . وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى . ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية (مصادر تاريخ الجزيرة العربية) ، ج١ . جامعة الرياض (الملك سعود حالياً) - ط١ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .